نوال الجبر

مجموعة قصصية

ماذا يصنع رجل في معطفي



نوال الجبر

ماذا يصنع رجل في معطفي



نوال الجبر

ماذا يصنع رجل في معطفي

مجموعة قصصية

تصميم الغلاف: هشام يحيى



الانتشار العربي

ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-365-3

الطبعة الأولى 2013

Acknowledgments

Thank you to my family, especially Mama and Dad «Allah grant mercy upon his soul», and, collaborator, A J H, and my baby girl, Narez (who isn't a baby anymore but will always be my baby).. Thank you to my dear friends who supported me during the worst year of my life.

I also want to extend a very special thank you to «M».

أنْ أتكهَّنَ أو أطْرحَ قلبيَ في السّماء..

صلاتنا كانت شيئًا لامعًا!

كنت أقف مثل الشمس على حد العمود حتى يختل توازني، وتبدأ السخونة تنبعث من جسدي مثل عصفور يطير على غير هدى في كل اتساع السماء. أكاد أسقط لولا أنك تأتي مثل مطر جارف على سحابة متكومة من خلفي وتحملني ثم أقف معتدلة..

ـ لا تفعلي ذلك ثانية!

ـ أريد أن أستعيد توازني.

ـ تعلمين مسبقًا كيف أخاف أن يصيبك مكروه.

ـ يا رب امنحني قوة طبيعية بإمكانها أن تحميني وتعيد توازني.

جذبني من ذراعي بشدة:

ـ دعينا نصلِّ إذن..

ـ لا أريد.. أنت دائمًا تفسد صلواتنا حينما يغالبك الإحساس بالجوع.

ـ لن أفعل.. أعدك.

ـ أنت دائمًا تشعر بالجوع..صحيح لماذا الرجل بالذات يلازمه دائمًا هذا الشعور؟!

في الحياة،في العاطفة، في المعدة، في النوم، في الـ...،

ـ والأنثى!

راحت تحط برؤوس أظفارها الطويلة وجنتها مقطبة الجبين:

ـ الأنثى أظن أنها كانت تشعر بالامتلاء بحسب معرفتي، والآن هي بدأت تشعر بالجوع أيضًا.

ضحك باتساع فمه:

ـ أنت غبية...

ـ ماذا؟! أنا! أنت.. ماذا تقول؟!

ـ نعم أوقعتك.. اعترفي استسلمي ارفعي يديك.

ـ هل سمعتني يومًا أقول لك بأني أحبك؟

ـ لا ، أنت لا تقولين الأشياء التي تؤمنين بها.

ـ ها .. هل تعرف أكثر الأشياء التي تعجبني فيك؟

ـ أعرف أعرف.. لكن ماذا؟!

ـ أن لاشيء يعجبني منك.

ـ أنا رجل شرقي جدًا وأنت تعلمين كيف يزعجني هذا الحديث!

ـ وأنا أنثى لا شرقية ولا غربية زيتونة في عينيك.

ـ هل تتذكرين كيف كنت تكتبين قصص الحب؟

ـ وهل تتذكر أنت كيف كنت تكتب قصص الموت؟

ـ هل جربت الحب سابقًا لتكتبيه بهذا الشعور؟!

ـ ماذا عنك؟.. هل جربت الموت لتكتبه بهذه السوداوية وهذا الحزن المقيت؟!

ـ بالطبع لا..كل ما تقرئينه في قصص الكتاب أمثالي ليس سوى تأملات الأحياء في الميتافيزيقيا وأوهام بالية عن حياة ما بعد الموت،ليس شرطًا أن نَمُرَّ بحالة الموت كي ندونها.

ـ إذن هذا هو جواب سؤالك أيها السيد.. رجل!

امتعض من حديثها ثم أطرق مفكرًا حتى تدافعت يداه في وجهي، وظل ينظر وكأنه تلقى توًا صدمة الموت من جديد.

ـ هل أسألك سؤالًا وتقسمين على قول الحقيقية؟

مبتسمة وبنرجسية:

ـ نعم.

ـ ذكرت في قصصك أنك ارتديت فستانًا أحمر قصيرًا للرجال. هل حدث ذلك فعلًا؟!

أجابت مستنكرة:

ـ ماذا تقول رجال؟!!. إنّه رجل واحد، أحبته إحدى الشخصيات وارتدت له الفستان في عيد ميلادها!!

ـ لأيٍّ كان! هل حدث هذا على أرض الواقع؟!

ـ ها.. إذا افترضنا ذلك، يجب أن نفترض أن هذا ما حدث في القصص الأخرى، فهل أنا عجوز تشعر بالغيرة على زوجها الستيني، أو أنا المرأة التي ظهرت على بطنها علامات الحمل، فنفر منها زوجها على الرغم من أنني ما زلت آنسة في أرض الواقع. إذا حدث ذلك فلنفترض أنَّ كل شيء كتبته في قصصي قد حدث!! لكن كيف تبرر أنت ما

قرأته أنا في قصصك؟! هل مارستَ الحبَّ فعلًا مع زوجة جارك؟! هل قبَّلْتَ إحدى الفتيات في أحد المطاعم؟ وحملَتْ بسبب هذه القبلة الساحرة؟! هل تعجبك مؤخرةُ زوجةِ أخ أحد الشخصيات؟ أقصدك أنت، نعم.. هل تعجبك مؤخرة زوجة أخيك؟ هل تتمنى أن تكون لك بدلًا من أخيك؟!

ـ أوووه!! هذا خيال كاتب لا يجدر بك محاسبته بهذه الطريقة.

ـ وأنا ألست بكاتبة؟! أو ماذا أكون؟!

ـ أنتِ حبيبتي، يجب أن أحاسبك عن الماضي!

ـ أي ماضٍ تقصد؟!!

ـ ماضي خيالك.

ـ تعرف أن الرضا في العشق هو أمر محدود جدًا. مهما استثمرنا طاقاتنا كلّها في سبيل استمراريته، هو مشروع عاطفي فاشل؛ لذلك أنا لا أريد أن أمر بتجربة حب.

ـ الحب يا آنستي لا يحتاج إلى قرارات كي يتكون. الحب يحتاج فقط إلى تلك القرارات حين يكون ويستمر ويكبر... فهمتِ؟!

ـ لا أعتقد أني ملزمة بحتمية الاختيار، الذي سيكون غالبًا اختيارًا سيئًا. الحب سيجعلني في موقف ضعف، وحين أكون في هذا المكان أجدني أضعف من أن أقدم مبرراتٍ لاستمراريته. أنا قوية الآن لأني خارج إطار الحب. .

ـ وأنا الآن ضعيف أمام حبك. أشعر بضعفي أمامك. ليست لدي صلاحية ضاغطة لإقناعك أقليلة كانت أم كثيرة.

ـ الحب لا يجب أن يحمل أدنى درجات الشك كي يكون.

ـ إن الصدفة التي جعلتني أراك؛ جعلتني أقول ملء قلبي: «هيا» إنك الروح الكونية المحلقة. إنني بدأت أتكامل معك. هي أحد الأسباب التي جعلتني أحوز الوعي المحرض للاعتراف بك داخلي، وعلى هذا النحو ـ وليس غيره ـ يمكننا أن ندعم أحاسيسنا بالاحترام؛ فلماذا تحكمين على شعورك بالموت وأنتِ لم تجربيه؟!

ـ ربما لأني سأتمنى لحظة تفكير بعقل كهذه قبل أن أخوض تجربة الحب التي تريد ـ في كل الأحوال ـ الحب بحرية أو تحت ضغوط، يجب أن نكون مستعدين تمامًا لهذه المرحلة ـ إن حانت ـ للتنازل عن أشياء معينة في الجوانب وبعض الغايات.

ـ روح الأشياء التي تعود بنا إلى الحب لا تعني أن يذكر كل واحد منا الآخر في كل لحظة بدرجة تطابقه مع النموذج المثالي للعاشقين!

ـ أنت مخطئ. إن ما قلته هو معاكس تمامًا؛ فالقياس الداخلي للحب في أعماقنا وقياس النتائج يكون كل لحظة نمر بها سواء أكانت اللحظة تتضمن غضبًا، حزنًا، وبكاءً أم...؟!

ـ ألسنا متجردين، لو حدث ذلك من كثير من الأشياء الشعورية التي يمكننا معها أن نتقبل بعضنا بعضًا ونتعرف بعضنا دون قيود؟!

ـ إنها نقطة تتمحور حول الصحة أو عدمها، وتبقى لغزًا يستحيل حله. كل الوجوه في الحب غير متشابهة، إلى حد يُمكِنُنا أن ندرك صحتها، فليست هناك معايير واضحة، لو أردنا أن نقرأ فيها شيئًا ما يمكن أن يظهر وضوح اللحظة مع لمعان شديد يعلن صلاتنا.. في نظرة العاشق الحالم ما يمهد بالمسافات البعيدة للأبدية بأن تحين وتأتي.

ـ الحب ليس لحظة يبحث خلالها العاشق عن إظهار قدرته على شيء ما للطرف الآخر!

ـ في كل مرة، وفي كل يوم تأتي قدرتنا مع الحب بصورة مختلفة إذا تعلق الأمر بالمعنى الكوني للحب؟

ـ مفهوم الحب هو: أن يرى أحدنا نفسه ذائبة كليًا في الآخر! وهو (الآخر) بذلك يعرف نفسه داخلنا. لاينبغي أن نتعامل في الحب ومصاعبه حسب المقولات وقراءات الآخرين له. لابد أن نؤمن باختلافنا في الحب. لا يعني هذا أن تحبني لأنك هكذا أردتني!

ـ إذن نحن نختلف، وأجد في الاختلاف فرصة أعترف لك داخلها كيف أني وبالرغم من هذا الاختلاف أحبك؟

ـ لا يمكن أن أصل إلى إحساسي بهذه الكلمة في الحب ما لم أتعمق في نفسي أولًا، أعرف ذاتي كيف تراك؟ وكيف تريدك؟ كيف ستحميها؟.. أشياء كثيرة داخلي فائضة بها؟

ـ أنتِ سجينة نفسك تحبينها فقط، ولا تمنحين للآخر أن يبرهن لك عن حبه لها.

ـ صدقت، أحب نفسي... أحبها أكثر منك. فيما لو تألمت... انهارت... دُمِّرت... ماذا سيفعل لها حبك سوى الهرب؟ أحب نفسي كي لا تتأذى. تستطيع أن تصفني بالفتاة المثالية إلى أقصى الحدود. أنت لا تملك شيئًا يخصني سوى مشاعرك التي ربما تتغير مع الوقت. ربما، وربما أشياء أخرى لا أدركها الآن وسأدركها في الغد لو أتممت هذا الحب.

ـ لست سوى إنسان في نظرك ربما يقع في الخطأ الأزلي مئات المرات.

ـ ذلك صحيح دعني أعد إلى التدريبات حتى أستعيد اتزاني بعد أن أحدثت في داخلي خلخلة أطاحت كل أفكاري!

ذهب، وهي صامتة على عمودها. تنبعث منها حرارة. حاولت الصمود بينها وبين نفسها، لكن خطر الوقوع في الحب هو ذاته خطر يشابه ما تخشاه الآن؛ إذ لا أحد سيمسك بها من الخلف فيما لو اختل توازنها كما هو شعورها في الحب.

«حين نزعت رداء الجسد تعرت الفتنة»

زجاجة في محيط تأملي

لا شك أن البحث عن الحرية ـ في أي مكان وزمان ـ هو ما يدفعني إلى أن أترك كل المسافات وأغادر الوجوه؛ لأبقى هنا وحيدة أدون في هذا الكتاب الجلدي ذي الورق الأصفر. تركت أقلامي الكثيرة التي كلها ذات لون واحد هو لون الزرقة، تركتها جانبًا على هذا الكرسي في الهايد بارك (Hyde Park) وهي أكبر الحدائق في المملكة المتحدة هنا في لندن. لبست ثوبَ الحريةِ، وقفت عند نوافيرها التي تفجر من فوهتها ثماني مسارات للماء. تسقط في مكان آخر بشكل متفرق. تذكرت ـ وأنا أقترب منها ـ أن الإنسان أيضًا بحاجة لأن يطلق غضبه وذلك بأن يرميه في ثماني مسارات متباعدة؛ لتسقط في أماكن مختلفة وأن لا يحبس داخله كل هذا الغضب، هو ما جعلني أختار مسارًا مختلفًا وجوهريًا بعيدًا عنه، في حين أنه هو الآخر يغني أغنية لا يمل ترديدها طوال اليوم، هكذا كان يقول لي حين استفسرت عن أغنيته القديمة التي وضعها في صفحته على الفيس بوك فيما إن كنت ضايقته، فيما إن كان يشعر

بالملل مني، وفيما إن كانت طويلة بحجم عشر دقائق، أقنعه بأخطاء لم أرتكبها، ولكن هو الخوف الذي يجبرنا على الحساسية في التعامل ـ خصوصًا مع الرجل ـ . أمسك بالأسوار الحديدية التي تصل بمحيط النوافير الموجودة في كل مكان. أنظر إلى المجسمات... إلى الأشكال التي تقف بخشوع صامت وتخرج منها نباتات خضراء صغيرة، ولنهاية تلك الأسوار التي تضم أعمدة ذات قباب مسقوفة تنتهي بنقطة. نسيت أن أتابع تدوينها في آخر نقطة في كتابي الجلدي. المساحات الخضراء حولي تنبسط كسجاد كوني يلامس روحك، والأشجار الضخمة ترتفع لتحجب أطراف السماء حولي.. هنا في الهايد بارك، تسقط قطراتها مثلي تمامًا، لدي رغبة في البكاء رغبة في أن أخرج روحًا بكائية من جسدي.. روحي تخرج بأرواح كثيرة مثل تلك القطعة الورقية التي نقتصها بأشكال هندسية ثم نفتحها بعد أن نقص قطعة ورق فتظهر متشابكة بشكل واحد نعلقها بطرفي خيط لنبدأ احتفالاتنا. هي الروح الحزينة ذاتها تخرج باكية كل مرة أصطدم بشيء ما تخرج تمامًا بشكل واحد وإن تغير المقص! اليوم ليس من الآحاد هنا في سبيكرز كورنر (Speakers Corner) التي تعني زاوية المتحدثين والتي تقع في القسم الشمالي الشرقي من الحديقة، المكان الذي يجتمع فيه المتحدثون كل يوم أحد لإلقاء كلمة أو محاورة في موضوع ما بكل حرية.. وربما تسمى زاوية الخطباء أو المتكلمين، هنا تذكرت تمامًا حين قلت له:

أريد أن أبكي

ـ ابكي على صدري.

ـ لا أستطيع.

ـ ليس ضروريًا، غني فقط.

عندما تغنين ستنطلق بك الحياة.. غني، ارقصي ستتبدل أحوالك.

ـ احتضني.

ـ بكلي.

ـ سأكون أكثر هدوءًا معك.

ـ ستفضين بك.. سأجمع السحاب لك وأدثرك به.. ثم نمطر مطرًا بلذتك.

ـ لا.. أكره المطر.. أكره البرد..أريد الدفء.

ـ عندما نمطر لن يكون هناك برد.

عدت أسير في الرقعة الترابية الطويلة. حولي أناس شقر لا أعرفهم. الأشجار الضخمة حول الطريق، والكراسي الخشبية المشغونة بحديد ذي طلاء أسود يحيط بأدق تفاصيله؛ فارغة من تلك الأجساد التي تسير حولها سوى كرسي يجلس عليه عاشقان يتبادلان القبل بشكل يشبه بدايات هطل المطر على أرض لم تبتل تمامًا.. نحن العرب في هذه المواقف لدينا حساسيتنا الخاصة تجاه الحب والملامسة، والقبل الخاصة بغيرنا تلك التي تحدث أمامنا؛ حتى تلك التي تأتي في القنوات الفضائية صدفة، ولو

تكررت بشكل إعلان تلفزيوني نعاملها على إحساس الرفض. هي لابد أن تثير السخط. والحب الوحيد الذي نمارسه يكون في الظلام. هكذا باعتراف ذاتي فقط لايقبله المجتمع، ولا حتى نحن نقبله في النور. أعود لأتذكر القبلة الأولى... أتت قبل أن نكمل عامنا الأول يااااه. كانت ساحرة مباغتة. أتذكر ذلك جيدًا حين حلمت بمجموعة أشياء مزعجة. كان منها أن لي طفلًا رضيعًا إلهي الجمال بريئًا قال لي:

ـ هل أرضعته؟

ـ نعم. أربع مرات.

ـ سيكون لك فجر باسم. ستهبك الحياة شيئًا جديدًا ستفرحين به.

ـ كان طفلًا يستسلم حين أخذه بحضني.

ـ وهل هو من الغباوة ليغادر صدرك.. كان يشعر بالأمان وحنان العالم.

ـ تعرف فعل أكثر من ذلك أوشك أن يعضني أو أظنه هكذا فعل.

ـ هل آلمك؟

ـ نعم...

ـ إذن أحبك جدًا.. كان يريد المزيد.

ـ ولكن هل هو ابني فعلًا؟.. هل أنا أمه؟!

ـ لا .. الطفل حياة..حياة جديدة بها حلم جميل ستفرحين به.

ـ كان جميلًا. ملامحه كملاك صغير.. «فارس» اصنع لي مثله.. أريده.

ـ أحببته.

ـ جدًا...

ـ سيكون لك.

ـ حملته بذراعي هو لي...

ـ صدرك كان منبعه هو لك...

ـ كنت أرضعه، فمه صغير جدًا كعصفور يا إلهي ما أجمله...

ـ أشتهيه لكن لا صدر لي.

ـ هههههههه مجنون بحق كان يشبهني أقسم لك كأني أنا من أنجبته.

ـ بشارة خير إذن استمتعي به وانتظري البشارة.. ستكون شيئًا مبهجًا.

ـ بشارة ماذا؟ لا أريدها.. أريد طفلي.

أنت الآن بعيد عني تفصل بيننا أكثر من قارة، أخشى أن أكون أزعجتك واقتحمت خصوصيتك.

ـ في كل مكان أنا مستمع بي.. متصالح جدًا مع نفسي.

ـ هل تريد أن أتركك؟

ـ تتركينني للأرصفة الحمقاء؟

ـ هل أظل بجانبك؟

ـ سيكون الشرف لي.

في سبيكرز كورنر (Speakers Corner) كان علي أن أقول لنفسي كل شيء بحرية... أن أعتلي منبر الخطباء وأخاطب روحي. أسأل عن ذاك الفراق الذي ترك لنا جسدين في أماكن متباعدة، وروحًا واحدة. كلما قَرُبَتْ بَعُدَتْ أمامي. العاشقان في منزلق اللذة يقبلان، والمطر لا يتوقف. أمطرت السماء بلذتهما وحين فاضت اللحظات أبعدت عيني إلى مكان آخر... مكان يشبه وحدتي. منطقة كأنها صنعت من أجلي. لا أحد يعبرها جلست على الكرسي. تذكرت العاشقين، ولذتهما، وكيف كنا في الرياض لا نفعلها أمام الناس. كانت أعيننا تفعل أكثر من ذلك. حين غادرت وجهه في الوجوه المكتظة رأيت في عينيه ملامح الغيم وحزنًا دفينًا لم أفهمه؛ لكني أحسسته بعمق حين قلت له:

ـ أريد أن أضع رأسي على يدك.

ـ سيتسلل من شمسك نورٌ يروي كل نبضي.

ـ لم أكن أعرفك قبل هذا وأريد أن أضع رأسي على يدك ؛لكني أضحيت الآن أعرفك أكثر من كل الناس.

ـ بسمة لا تعرف وجهها تكون قد غادرته.

ـ حتى المعرفة تبدو لي شيئًا خاصًا ؛لكني سأنازعك عليه.

ـ سيكون ذلك سببًا في نهاية خريفي وعودة الربيع لما مات مني.

ـ هل تحب أن أكون كما أنا الآن، أم أتعمق فيك أكثر لأصبح قريبة جدًا، أم يكفيني شرف الوصول إلى هذه المنطقة.

ـ زرعتك داخلي، فتجذري بقدر ما تستطيعين.

ـ يحق لي أن أسأل؟

ـ أجبتك...

ـ أي اللحظات التي جعلتك تزرعني داخلك أو ألهمتك فعل هذا؟

ـ عطرك.. الذي فضح ورود الياسمين ظل يطاردني فزرعتك يومها.

ـ أمن تلك اللحظة؟!

ـ نعم...

ـ أخشى أن يكون هو العطر وليس أنا.

ـ العطر يزول لكن البذرة نمت وغدت شجرة.

ـ وماذا عن تلك النظرة؟

ـ قلت إنكِ تعرفينها... تعرفينني فاجتهدي في معرفة أسرارها...

ـ لا أعرف. تلك النظرة، لم تبرحني أخبرني ما معناها.

ـ لن أخبرك...

ـ أفكر جديًا في تكرار شراء العطر الذي أعجبك...

ـ له مذاقك...

ـ أخبرني عن تلك النظرة وإلا سأفعل كما فعل الرضيع، أقصد ابني، سأعضك.

ـ عض النساء له لذة.

ـ لست أمًا بعد.

ـ الشفاه التي تقطر عسلًا تستحق أن نمنحها ما تعضه.

ـ كلامك مخجل.

ـ على العكس عضي سأستمتع بشفتيك.

ـ هات كفك...

ـ لا ليس الكف اختاري شيئًا آخر.

ـ لا أستطيع أن أفعل. أنت شخص محتكر ربما لسيدة.

ـ لا يجوز الاحتكار.. محرم شرعًا.. ليس لأحد أن يحتكر العض.. من عض فله أجر ومن تقبل العض فله أجران.

ـ ههههههههه حقًا أجر ماذا؟

ـ أجر العض.

ـ هل تخبرني عن سر تلك النظرة.

ـ أنت من شاهدها ، ولست أنا ، ففسريها.

ـ هل كانت غيرة أو عتبًا؟

ـ نظرتي فيها كلام، وأنت من كان يجب أن يقرأ ، وهي خليط بين هذا وذاك

ـ أهلكتني تعبًا وأنا أسأل نفسي عن معناها.

ـ عندما تعضين إبهامي سأخبر شفتيك بالقصة.

ـ هاته.

ـ فأخبرت شفتيك بحديث لا يفهمه غيرهما.

ـ لا تكذب علي أخبرني.

ـ أخبرتك هل رفضت شفتاك أن تخبرك بسرها؟

ـ شرير...

ـ كانتا ناعمتين نديتين شفتاك زرعت بهما وردة فابتسمت...

ـ كلانا لم نعد نحبك..

ـ أنتِ ومن؟

ـ أنا والعطر.

ـ وشفتاك؟

ـ هما أيضًا تشاركاننا في الغضب...

ـ لم؟

ـ لم تخبرانا.

ـ ما صنعت لهما إلا خيرًا أخبرت عطرك، أخبرت شفتيك.. اسأليهما يخبراك بمذاقي.

ـ أنت الأقرب.

ـ قالت لي شفتك قد فتنتني. أغمضت، ثم قالت: زد أشعر بماء ينهمر. قلت: نهرك. قالت: زدني... قضينا وقتنا نسهر معًا.

ـ بربك قل الصدق. هل كان إحساسًا بالغيرة؟

ـ لا أغار أبدًا. لا أحب الغيرة هي مشعل الشر. أكرهها جدًا. كلها شك وريبة.

ـ هل كان ملومًا؟

ـ نعم.. كنت أقول لم أنت بعيدة عني؟ لم لا تقتربين؟ نحن على بعد خطوة منا.

ـ يا إلهي كنت أحس بذلك.

ـ فلم هربتِ؟.. هل خفت مني؟

ـ لا... أخاف كل شيء إلا أنت.

ـ لكنك هربتِ وتركتني وحيدًا في زحمة الناس.

ـ أقسم لك لم أفعل.

ـ كنت تخافين النظرات.

ـ هل كنت تريد أن تمسك بيدي؟

ـ كنت أصل إلى ما هو أبعد لدي خيال خصب.

أريدك أن تنامي على صدري ونحكي كثيرًا.

هناك اقتربت.. نزع مني كل ثياب الخجل ونزع من شفتي طلاءهما اللامع.. أصبحنا عاريي الروح والجسد.

ـ دفء جميل بك.

ـ ارفع شعري عن كتفي وعنقي وجبيني.

ـ اغمريني به لأستنشق أنفاسك أتنفسك.

ـ أشعر بالبرد.

ـ أدخلك داخلي... أغمرك بي...

ـ في منتهى العاطفة أنت...

ـ بوجودك يحلو لي أن أحلم بك لاشيء يشبهك.

ـ هل أنا ملهمة كـ (مي زيادة) مثلًا؟...

ـ أنت أكثر من ميّ... فتنتك ليست لدى ميّ.

ـ وفي عيني؟

ـ تسكن أحلام العالم...

ـ سأكون مغرورة!!.

ـ حتى في غرورك ستكونين فتنة.

ـ ضع يدك على وجنتي.

ـ ناعمة كالحرير أتجول في خريطة وجنتيك...

ـ لي تفاصيل أنثى.

ـ ألمس كل تفاصيلك.. أغمز الغمازتين بشفتي...

ـ أنا لا أؤمن بالحب أهرب بعيدًا حين يتحول الأمر إلى حب.

ـ ستهربين مني؟!

ـ نعم أخاف الحب.

ـ كيف تعضينني، وأقبلك، وتنامين على صدري؟

ـ لا أريد الحب.

ـ ظلي على صدري.

ـ أخاف!!

ـ تخافين مني؟

لِمَ هجرتِ صدري؟ تعالي...

ـ لأن الحب شعور مؤذٍ جدًا.

ـ دعي الحب، عودي إلى صدري، شعرت بالوحشة عندما تحركت بعيدًا عني

ـ بت أخاف...

ـ إذن لن أكون سبب خوفك وإن خفت ابتعدي.

ـ لا أريد أن أكون مثل (جوليا روبرتس) في العروس الهاربة.

- ستقعين يومًا في الحب إن لم يكن معي فمع غيري.

- لا... لم أشعر أن أحدًا يعرفني من الداخل.

- اهربي ما طاب لك، ثم اسكني حيث شئت.

كان ذا آخر صوت له داخلي... آخر ذكرى تحيط به وبي، هربت بعيدًا منه، هنا من الرياض حتى لندن.. لِمَ أعادت الهايد بارك كل الأشياء التي هربت منها إلي؟. كان الوقت أوشك على الغروب والنهار يقضم قرص الشمس. صورة السماء في البحيرة والبط الذي يسبح على سطح البحيرة وأخرى تميل رأسها إلى الأسفل. ربما كانت تأكل شيئًا في الماء حين توجهت إلى قارب أزرق وبدأت أجدف بعيدًا.

يد تلوح خارج النافذة

الآخر البعيد

صوتي الذي يشتعل بحماسة كبيرة وعيناي اللتان ترقبان المكان بشكل واسع حتى رأيت ذاك الوجه الذي لم أكن أعرفه وكمن عاد ليتأكد من شيء قد لمحه كأن بوصلتي تهتدي إليه ولكن الحقيقة أنه لم يسبق لي معرفته ذاك الغريب الذي رحل دون أن يترك لي وجهة أتبعها.. الكرسي الخالي الذي كان قريبًا مني صار خاليًا إلا من حزن يحتقن بوجهي وتساؤل: أين رحل؟!

كانت الدوامات تتفصد في رأسي كيف استطاع ذاك الرجل أن يثير اهتمامي.

جدة السماء كانت تحيطني تلك الليلة.. تستلقي على شرفتي. تركت لها ستائري البيضاء وفاجعة الفقد تتجلى على صمت يلفني.

وأدرت ظهرِي. سمعتها تناديني، لم يكن الوقت يتسع لتحدثني عما توجسته في عيني اللتين خفت بريقهما حين بدوت في أقسى لحظات حيرتي وقلقي. أخرجت يدي من

جيبي سألتها عن إشارات الجذب كيف فقدت وجهتها وهأنذا أقف في اليوم الذي يليه دون أن أجد إشارة موحية وأنا التي لم أستمع منه إلى كلمة واحدة تثير في مسمعي ذبذبات صوته. اختلاجة عيني في لحظة اندهاش أتفقد وجه الضوء الذي أشاحه عني في الظلام حتى الكتاب المقدس وتنبؤاته ما من نبأ يشير إليه..في ذاك الركن افترش الهدوء. المساحة بيننا وهو ما حدا بذلك لأن يتفشى الصمت بما يشبه حيلتي القاصرة. وضعت يديها على كتفي وأمرتني أن أتحصن. لم أعد أراها تلك الساعات الأولى من الصباح غير أن رسالة إلكترونية من شخص أعرفه يأمرني أن أرسل إليه أوراقي التي كنت أرتلها على مسامعه في آلية مفرطة أرسل إليه ما أراد دون أي اهتمام واضح.

كان صوته يستفيق بأذني ناعسًا مثلما كنت أحس دائمًا أو أشعر به. أغلقت الهاتف بعد حفلة شكر مفتعلة ثم اِلتَفَتُّ لأطلق نظراتي باتجاه النافذة. يجب علي مواجهة الأمر فالهروب لم يعد مجديًا..

جدة السماء فقدت إشاراتها إلي ولم تعد تسكن شرفتي. غادرتني؛ لأن الإيمان في رؤيته من جديد قد غادرني أيضًا.

لم أعد ألمح في الأفق نجمة فقد حملت نجومها وإشاراتها وجاذبية الكون إلى مكان قصي أرسلت إلى الرجل البليد الذي يقرأ أوراقي بتمهل يصيبني بالغثيان أو أنه يجمدني بعضًا من قصاصات قد كتبتها؛

ذاك الرجل الذي ينتمي إلى برجي المائي العقرب اغترب بنفسه بعض الوقت ليحتسي الكابتشينو ويقرأ بتركيز عالٍ.

قال لي ببلادة مستحيلة:

ـ لست ناقدًا أنا فقط متذوق ما قرأته في غاية الروعة.

بدوت كمن تؤمن تمامًا بعشوائية عقارب بوصلتها أو أنها انتظرت منه أي تعليق آخر عدا تلك الكلمات التي سحقتني. حملت بيدي كتابي. مزقته. كسرت دائرة الكون المائية. انفجر الماء بالمكان. تناثرت الأوراق المتطايرة وحده التمثال الذي لم يتهشم غير أن أثرًا لخيوط مائية انهمر على وجنتي.. في كل مرة كان يخيل إلي أني محبوسة في وسط عينيّ بدونهما لن أرى الكون وأنا أضج بهدير انفعالي..

لم أحترم مشاعري الحقيقية أو هكذا خيل إليّ حين كان أثر الهشيم هو ردة فعل مخفقة اجتاحتني لأيام.

عادت إليَّ جدة السماء؛ لتؤكد لي أن ما فعلته كفر بكل إيمان وأن الغريب بدا قريبًا. سألتني إن كنت أعرف لونًا للسماء والبحر غير الزرقة؟

أجبتها لا لون لهما!!

خطوط من الكحل الخفيف رسمتها أعلى جفني ثم نهضت من مقعدي مزمجرة. تركت خطواتي الساخطة على

الأرض التي حملت معي خيبتي وخذلاني لوقت طويل. وجدت الرجل البليد يركن لإشارات تشبه إيماءة رأس عابرة وكأن تحديًا آخر يسكنني. فتحت الباب عليه وكتبت رسالة مطولة قلت فيها كل ما يجول في خاطري ثم أفردت جسدي على طاولة المكتب. كان يقترب مني في كلماته كمن يجتهد في لطافته معي والكحل الذي سال من عيني يرسم أثر ماءٍ يشوبه السواد. كنت أشير بيدي إلى جدة السماء أن تأتيني لكنها لا تفعل..

كان شعورها مفاجئًا..

وأنا: أتراني أحببته؟

ما الذي عصف بأعماقي وجعلني أغوص في فكرة التعلق تلك؟ لماذا جرفني الغموض؟؛ لأن أتعلق بشخص عابر أم هي لم تكن أكثر من مجرد رغبة انداحت بأعماقي لحظة أن كان هو مركز الكون الذي بحثت عنه في مدارات ونجوم وشهب تطيحها جدة السماء ذات العينين الخضراوين.

لم كل هذا الغضب إذن؟.. وماذا في كل ذلك؟! وماذا سيعني وجوده في حياتي أو معرفته؟!أعلم أنه يمضي الآن في هذا الكون ويتيه في دوامات غير آبه وربما لا يدرك أن أحدًا ما يبحث عن إشارات تأتي به. كنت أضع تاجًا صغيرًا على أظفاري الطويلة المطلية بطلاء له لون ملكي ومازالت كَرَّة الجنون في أن ألقاه.. ولكن ماذا سأقول له بعد ذلك؟!

نعم سأقول له وليكن ما يكون..!

ربما أود أن أبادله الحكايات الصغيرة أو ربما سأبدو كمن يتحدث كثيرًا أو يسخر أو ينفجر بضحكات لا تتوقف انتحيت مكانًا قصيًّا ولذت وحيدة بأفكاري كنت كمن يسترسل وحيدًا. ارتفعت حرارة جسدي. أخبرت ذاك البليد المتكاسل أنني مرضت من برودة الجو. أغلقت نوافذي. هجرت شرفتي. لم يعد باستطاعتي متابعة نزول جدة السماء على شرفتي. ذراعي لم تتمكن إلا من كتابة رسالة واحدة له:

«إني محمومة»

بدوت كمن تهذي وتلمس أطراف اليقظة بالحلم. رأيت ذاك الرجل يناديني. يصرخ بي وشفتاي عطشاوان لقطرة ماء. جسدي لاهث وكأنما أجري في متسع مابين السماء والأرض. كان برسالته يقترب، يتوسل إلي أن أعتني بنفسي كأنما لي ذراعان ممدودتان ضممت شيئًا ما إلى صدري يشبه قاربًا صغيرًا ولكن ريحًا غامضة لفظتني على مقعدي. انفجر بنا الإحساس بالآخر أمسكت برجائه أن أكون بخير بحثت عنه. تحدثت إليه بصوت خافت كان قلبه يتفطر حزنًا عليَّ ثم غادرت صوته. بدأت أتقوى. فتحت بصعوبة زجاج الشرفة. رأيت جدة السماء في انتظاري.. أحست بأن روحي ترتعش وقلبي يتهاوى من نبضاته.. نظرت إليَّ بحدة عينيها اللتين حاولت أن أستجلي بهما شيئًا، صراخًا، رفضًا، أو صفعة كلمات إلا إنها أشاحتهما عني بقوة ولم تبق في الفضاء. تركت خلفها قوسًا من السماء ملونًا يشبه أثر الخطوات في سحب بيضاء. لم أحتمل عاصفة الغضب. عدت إلى سريري

لملمت أطرافي. نمت نومة جنين في رحم أمه متكومة على ذاتي. صحوت ومساحة بيضاء في حلمي لم تعلق على أوراقها أي رسومات أو أحداث غير أني تمنيت أن يتلقى من إشاراتي ولو إشارة واحدة.

لماذا كان ينظر إليَّ حين عدت لأنظر إليه؟ ما الذي دفعني لأن أعيد النظر وأكتشف أنه يشاركني في ذلك الشعور أو تلك الالتفاتة؟ حين ملأت المكان بمساحة صمت لا أتذكر أي لوحة كنت أرسلها إليه؛ ليرد علي بتلقائية حماسية تشبه تلك التي ندفعها إلى أطفال صغار لتنمو في أقفاص صدورهم حماسة كبيرة على إحداث أشياء كبرى. حاولت التعامل بحيادية حين مسحت باطن يدي بالبالطو الأبيض وأنا أسخر منه في رسوماتي حتى اتسخت تمامًا قلت له:

ـ لا تبالغ.

ـ أنا لا أكذب.

ظل وقتًا طويلًا يتملكه الخرس، ولم أحاول التحدث إليه لفترة أطول. لم أدرك لِمَ كان عليَّ أن أصغي إلى أخباره الصغيرة سابقًا وأنا التي كنت مؤمنة تمامًا أن شخصية هذا الرجل الذي لم أر له سوى لوحة كاريكاتورية

تشبه قطعة ثلج بين شفتي باردة؟!

حتى ذاك الصديق المشترك «رجل الشاطئ» الذي قال

إن برج العقرب هو برج برمائي لا أعرف لماذا يصر على تسمية الأشياء بهذه الطريقة الخاطئة. ربما يسخر مني وقد أخبرني أنه ربما كان يلحظ الحزن نفسه على وجه صديقنا يومَ كان الحزن يتفطر في ملمحي.

كان المطر يزحف على شرفتي، يتسلل بقطرات على زجاجي.. وأنا التي ركدت بحيرة جنوني، وصدأ غضبي الفادح.

كنت أؤمن أن الإشارات اختفت.

كم تمنيت في لحظات أن يقاسمني قهوتي، أن يرميني بلحظات صفاء جديدة، أن يدفعني الفضول لأن أرى صورتي المتأرجحة في عينيه.

هاجس غامض دفعني لمراجعة بريدي. وجدت من البليد صورة أو رجل العقرب كما كنا نسميه، وقد كنا نسخر في وقت متأخر من تبعات العقرب التي يتميز بها من غيره من الأبراج بسحره الذي لا يقاوم حتى رأيت بها صورة الرجل الذي كان يتأملني!!

لماذا أصبح وجهك حائطًا

وعينك غافية على قصيدة

أصبح فمك بئرًا

وأصبح اسمك بوح المدينة.

الحلم مفاجأة النائم!!

كان النهار مثل جلباب حي. يتحرك بحيوية. تنتشر خطواته البيضاء في كل المساحات. الحي المكتظ بالبشر، والصخب الخارجي يدفعني أن أترك الشارع إلى آخر فرعي ضيق لا يؤدي إلا إلى بيوت قديمة. لا يبدو عليها أي مظهر من مظاهر الترف. وكمن يصمت ويتأمل ليقرأ هواجسه، رأيت ذاتي أقرأ أوراق داخلي. كما لو كنت قارورة ملقاة في بحر تحمل رسالة ملفوفة. وحدها القارورة التي تعرف رسائلها، والبحر يموج بها، ولكن الشتات يأخذها؛ لأن تنظر إلى مرايا داخلها مرة. كلما استدعى الموقف ذلك تصطدم بالزمن اللا مرئي. أجد السلم الرخامي، ونافذة طولية تحمل شيئًا من النهار للظلمة التي تحيط به. أصعد ثم أتراجع. أكرر ذلك وأعود حتى اقتربت من الباب، ثم أدرت ظهري لأعود من حيث أتيت. فتح الباب نظر إليَّ:

ـ أهذه أنتِ؟

أدرت ظهري نحوه

ـ امممم.

ـ ظننت أنك لن تأتي.

ـ لا لكن لم أكن متأكدة من مكان الأستوديو.

سحب يدي بشدة، وأدخلني. لأول مرة أجد مكانًا بهذا الجمال، يغلب عليه اللون الرمادي. قال جملته، وانصرف؛ليحضر القهوة، وأنا أستدير على ذاتي أراقب الصور الكثيفة الموزعة بشكل عشوائي في كل أنحاء المكان. جلست على مقعد جلدي أسود اللون مرتفع جدًا، وبدأت أستدير وشعري يتناثر. شعرت بالدوار. لم أكن أحس أنه سيستدير بهذه السرعة. حاولت أن أتوقف ولم أجد ما يساعدني على ذلك حتى سمعت ضحكات بعيدة. وبدأت تهدأ سرعة الكرسي فقفزت وأنا أتلو اللعنة الشهيرة على ذلك الكرسي. أتى حاملًا كوبين لونهما أبيض.

ـ رأيت كل ما كنت تفعلين.

ـ كيف سبيلك إلى ذلك؟

ـ الحائط ليس طوبًا بل زجاجًا عاكسًا أستطيع أن أراك من خلفه.

ـ يا إلهي رأيت لهوي إذن!...

ـ لا بأس أحب أن أرى الناس على طبيعتهم؛ لأعرف عن أقرب اللقطات حين أصورهم.

ـ عذرًا لا أريد أن تلتقط لي صورًا في هذا المكان أريد مكانًا مفتوحًا...

شربنا القهوة وتركنا المكان، وكانت الحديقة ملاذًا للقطاتنا المفتوحة. كانت ملاذًا لنا. بدأنا بمغامراتنا حين

تسللنا خفية، وقد أوشكت الشمس على الغروب، وأغلقت البوابات، وفرغ الناس منها.

كانت بعض الأشجار تفوح منها رائحة عطرية. بعد أن استقررت على الكرسي الخشبي المثبت بالأرض. يحاول أن يتخفى بعيدًا عني. ليلتقط لي صورًا عفوية تعكس داخلي، كما يقول لي حين شربنا القهوة السوداء تلك، وأوجست منها خيفة، لكنه بررها أنها الملهمة له في احتراف التصوير. كلما نضج سوادها وعبقت رائحتها وكان طعمها مرًا؛ قفزت مرارته إلى ملامح وجهي فانكمش.

تساقط المطر فاستلقيت على الأرض، وكان يقترب مني شيئًا فشيئًا حتى تركته، وبدأت أصعد الأرجوحة. انسل على واحدة أخرى بعد أن ترك الكاميرا ملقاة على العشب الأخضر أمامنا...

- لا تحاولي قراءة صورك فإن قراءتها أشبه بحالة تحقق تلمسين فيها أحلامك.

كان أبيض البشرة. رائحة عطرة تفوح من جسده. له شعر كثيف وطويل، ويشبه تمامًا أمواج البحر الثائرة.

- لماذا أنت مصر على متابعة أحلام الآخرين؟!

- أنا أجن بلحظة الحلم تلك... هي من قسمات العطاء التي يمدنا بها الإله..

- ما الهدف من النظر إلى هذا الحلم؟

- ربما لأفرغ الدهشة المحتقنة في الوجوه التي تبدو صلفة جدًا...

ـ ماذا عنك؟... أيسعدك أن يكون حلمك مشاعًا بين الناس؟!

ـ ربما سيكون سعادة للناس. ربما...

حملت قلادتي الذهبية التي تتدلى على صدري، وضعتها على شفتي، وبيدي الأخرى أمسك بالأرجوحة، ثم أطلقتها وقفزت على العشب الأخضر فتبعني...

ـ أرأيت أنت مجنون تتبع أحلام الناس؟

ـ إنه جنون، وتأمل حياة، وموت. استنشاق وعبق. إنها الدقيقة التي أملكها مع كل شخص فلا تمنعيني منها.

كلماته الأخيرة غلبها التوسل، فكففت عن سؤاله. بدأت أشعر أنه بدا أكثر صفاء من ذي قبل.

بدأ يتحرر من لحظة احتباسه خلف الكاميرا... من ثقل ذاك الزمن الذي يختزنه في صور.

يحاول أن يحرر الرؤية من ضبابية الصور... ها قد بدأ يخرج صوته بلا صور. صوته الحقيقي الذي أذابته عين الكاميرا. لمساحة تخيل يعارك الزمن مع غصة القلق، والوجه المرتبك أبدًا. اقترب مني على الكرسي. بعد أن علا لهاثي، وأنا أركض، ويتسابق إلي كمن يعيد لعبة الصغار لملامحنا الشابة. لثم روحي، وأنا أكافح لأخرج من روحه ثوب أحلامه البريئة، ليرتديه. عليه أن يكون طفلًا مثلي ليستطيع أن يعيش طفولته. ما أدهشني أني أقف بين بوابتين إحداهما لوجه الغروب أقرب، وأخرى من شروقها تنطفئ. قطفت من على صدره سلسلة ذهبية. حتى تدلت من جيبه

ساعة مغلقة. أحضر الكاميرا ليلتقط لي صورًا معها. مرة إلى وجهي أقرب، ومرة حول ذراعي ويدي، ومرة تتدلى وسط وجهي، ومرة رفع شعري الطويل عن الجانب الأيمن ووضعها على ظهري متدلية...

- تحبين الأحلام.

- أحب إشاراتها ودلالاتها.

- الحلم مفاجأة النائم.

- الحلم سحر الموت المؤقت.

- ألك وجه جميل في الحلم كهذا؟.

- بل يبدو أحيانًا أجمل بكثير مما أنا عليه.

أمسكت يده بيدي، والتقطت لنا الكاميرا صورة. جعلتني أنظر إليه دونما دهشة، أو لا مبالاة. هائمة في قشور حلم بت أراه يتحقق. قلت له بعدها:

- إني سأخرج.

سأل بحنان مرتبكًا:

- هل أنت غير مرتاحة بقربي؟!

تأملته طويلًا، ثم قلت:

- كيف لا أرتاح وأنا بقرب كاهن حكيم حياته بيضاء؟ لم أشاهد في صورك أنك ترتدي الرذيلة أو تمسك بشيء آخر إلى جانبك غير الحلم.

اصطدمت عيناي بدهشته. كيف استطاعت أنثى أن تقرأ عبارات الصور في بضع وهلات؟، ثم تركته واخترت

لنفسي زاوية بعيدة. كأنما أريد أن أعيد ترتيب ما قلته. إن كنت أخطأت في تقدير اهتمامه لي.

بينما هو منشغل بترتيب الصور وإعداد الكاميرا. كان صوت في داخلي يحرضني أن أعود إليه. عدت بجانبه. ألقى الكاميرا جانبًا، ثم لمس ذراعي المكشوف، وقال:

ـ لماذا تبدو الحياة ناعمة؟!!

ـ لأنك كنت تبحث عن أقرب الوجوه إلى الحلم!!

بدأنا نتحدث بتجلٍ بتلقائية، ورغبة عاصفة في مواصلة السرد، وشحن الآخر بمعلومات أكبر. حتى وضع أصابعه على شفتي، وقال:

ـ دعيني أدخل إليك من أبوابي. أريد أن أعرف خارجك أولًا. قبل أن أغوص في داخلك. صوتكِ يقودني هناك. أن ألقي بروحي في دمك. لا تتحدثي. امنحيني فرصة أن أعرف هذا الكيان. يكفيني منك الهمس الضئيل. أسندت رأسي إلى ساقيه. وأخذت الكاميرا لأتصفح الصور. بعد أن ثنيت ساقي وضع يده على شعري المنثور في روحه. دهشة وتساؤل غامض.

ـ أيهما يمنحنا الفاصل بين الحلم والحقيقة؟

كنت أراهن على الحقيقة التي أوصلتني إلى الحلم. أوصلتني إليه، وهو يراهن على الحلم الذي أخذه من الحقيقة لي.

ـ إنها فوضى تذرك لعبور الدروب غير المألوفة. لقراءة

شيء مختلف، والحقيقة أن لا شيء جديدًا إلا الجهل. أي إننا حين نجهل شيئًا نظنه جديدًا، وهو ليس كذلك. إنما جهلنا يجعلنا نرى الأشياء مختلفة.

ـ يا جاهل!!

ـ يا جاهلة بي!!

ضحك وهو يمسح شعري وينثره فوق جبيني معاكسًا حتى لا أشاهد مزيدًا من الصور...

ثم رفع يدي التي كنت أبعد بها شعري إلى شفتيه، وقبلهما قبلة خاشعة بالحلم.

فجأة ظهر من بعيد حارس الحديقة وتوجه نحونا غاضبًا:

ـ لماذا أنتما هنا!!

أمسك بيدي وساعدني على النهوض، ثم خرجنا بعد أن أزاح قفل البوابة الضخمة، وتلك السلاسل الفضية. تملكنا الشعور بالحزن، وصمتنا ونحن نسير متجاورين. بينما الكاميرا على كتفه معلقة بحزامها الأسود ذي الشعار الأصفر. قطف زهرة بيضاء وأعطاني إياها. ابتسمت بالرغم من الحزن البادي. كل شيء كان في آخر ساعات الشمس مثل البلور اللامع والمتشظي.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ هل أنتِ عنيدة؟!!

ـ جدًا.. لدرجة لاتوصف. أريد بها أن أعود إلى تلك الحديقة. ظلت أشجار كنت أود أن ألمسها وأشتم رائحتها.

ـ لن أكون محبًا لك إن لم أدافع عن حلمك هيا تعالي..

أخذني من يدي بقوة، وعدنا إلى المكان ذاته. قفزنا تلك القفزة، وأنا أضحك، ويغلق بيده بواعث صوتي.

ـ في أيهما ترغبين؟!

ـ في هذه!!

وقفت أمامها بحب أكبر. كأنما أي لحظة من الحارس ستقتل حلمنا الأبدي. لن يخرجنا معها إلى البوابة... ربما يستدعي الشرطة... ربما يوبخنا... ربما وربما... ومع كل ذلك نحن ندافع عن أحلامنا. سنخرج متى أردنا.

صمت وهو يصورني، وعادت إلى وجهه تلك الصرامة التي لم أحبها. ذاك الإنهاك في أن يلتقط لي صورًا أشتهيها. موقنًا أن ما يقوم به عمل نبيل.

قال لي:

ـ افتحي ذراعيك وافرديهما إلى الأعلى...

فعلت فاتجه نحوي، واحتضنني، وأنا مذهولة، لا أعرف الكاميرا... كيف التقطت من أسفلنا كل هذا الجنون الذي يشاطرني إياه هذا المصور؟ كأنما نطير بذراعين!! كأنما التصقنا وصرنا متقاربين حد التماس!!

أحسست بأني بت أعرفه أكثر من ذي قبل، وشعوري يحيط بي بالألفة والإعجاب، وربما الحب حتى تجلت من ملامحه تلك الصرامة، وانفردت بانشراح، ثم خرجنا بعد التقاطنا الزوايا والأشجار والأماكن كما لم يحدث من قبل. اخترنا الخروج من الجنة دون حارس يفضي بنا إلى الجحيم.

عدنا إلى الأستوديو... جلست على الكرسي الرمادي. شيء من غطاء حولي ملقى على الأريكة. سحبته بقوة ولففته على جسدي، وبدأت أنظر إلى الواجهة الزجاجية، والسماء تتلو آيات الغروب. أتى بصحون بيضاء تحمل قطعًا من الفراولة والتوت البري. جلس بجانبي، وضعت رأسي على كتفه. قال لي:

ـ الحلم حقق اليوم انتصارًا.

ـ بل ترك كل الظلال على قلبي.

لمحت طائرًا غريبًا يتجه نحو الشمس...

ـ إن الطيور ملائكة الأرض التي تعلن السلام، وتستغفر عن خطايا أهل الأرض.

أحسست أنه كان يود أن يقول شيئًا آخر غير هذا، لكنه آثر أن يملي على ما يبقي ذهني في وضعه الخامل. كمن له رغبة في النوم والشعور بالدفء.

ـ لماذا لا تحلّ عقدة تساؤلك؟

ـ لماذا لم تأتي لمصافحتي؟

ـ اعتقدت أنك لا تعرفني...

ـ والذي لا يعرفك كيف يلثمك؟

ـ فاجأتني بالرد!

ـ أنا أعرفك أكثر من معرفتك بنفسك.

ـ هل أنهض لأصافحك من جديد؟

ـ أنت تفعلين الآن شيئًا بلا جدوى!!

ـ لا تنسَ أنك قلت ذلك ها!!

ـ المطر يسقط دون أن يخبرنا... لكني كما يرى النائم لم أرَ من جهتك أي تفاعل على الإطلاق.

ـ أحقًا أنا أهنتك؟

همس في أذني:

ـ يشفي غليلي هذا الجواب منك...

ـ سيكون جوابك هذا ربما يومًا يتحقق ربما لا يتحقق.

عاد الطير إلى الواجهة. ظل يتحرك بخفة حول الزجاج. يلتفت بدهشة، ثم استقر بعضًا من الوقت على الرف الأبيض. هو الآخر أشعل الموسيقا، وأنا وضعت التوت على أطراف أصابعي كمن يرتدي قفازًا. أكلت التوت، وصارت شفتاي حمراوين تمامًا. مددت له إصبعي؛ فأكل هو الآخر حبة التوت، والضوء يتوهج حولنا بعد أن صار الليل كقهوة سوداء. أحسست بوميض يتجه إلى قلبي. إنها وردتي البيضاء التي قطفها لي من الحديقة...

ـ لا تتصورين كم أنا سعيد اليوم وأنتِ معي؟

كان منتشيًا. نظرت إليه بمكابرة، ثم تحاشيت الكلام تمامًا معه، والنظر إليه. ظللت أنظر إلى تلك الوردة في يدي.

ـ أحقًا يأتي الحلم إلينا؟

ـ ماذا حقق لك الحلم؟!

ـ ما تركته أنثى بحياتي...

وقفت. ألقيت الغطاء عن جسدي. رفعت شعري إلى الخلف، ثم خرجت بحلمي المحفوف بالترقب لذلك الذي أخرج رسالة روحي ليقرأها خارج زجاجة جسدي. عدت أنطلق وأدخل الشارع من جهة كانت الشمس أشرقت عليها قبل ساعات.

لم تترك الحياة في داخلي سوى الدهشة..من الأشياء التي كنت أجهلها حتى وقت قريب،وأنه قرأ في داخلي ما صدم كل وعي بما حولي. في داخل رسالتي تمردت على الحلم. كما تمردت على الحقيقة. عدت إلى منزلي. صعدت إلى غرفتي. نسيت أن أغلق جهازي المفتوح على صفحته الإلكترونية كمصور. وجدته يدون عليها قبل دقائق سابقة:

«أشعر اليوم بمدى الرضى وأكثر الدهشة هي أن حلمي انتصر أبعد من الصور».

أفترش ذنوبي كلما أغلقت عيني بك

أو من عصافير على أغصان عقلي جعلتها
تحلق عاليًا

هل تدرك معنى أن تعشقك أنثى إلى هذا
الحد

وتزهر لك ورود يديها

حين تشتهي رائحة الرحيق

لها اسم الطائر الذي ستكون

صار النهار شرنقة تسير ببطء حتى يظهر في تكوين متناهي الصغر، وهي تلتحف بهواجسها على السرير الأبيض. شعرها الأسود المسدل، وقميصها القصير. تحتضن وسادتها بشدة. ترتجف يداها، وهي تحمل كوب الماء لتغرق روحها، فتستقر وتهدأ دقات قلبها الواهن. تخرج جدتها من كتاب قديم. تزيل بيدها غلاف الغبار الذي يغطيه. قالت لها:

- لقد رزقت ابنتها حمامة بيضاء. هكذا بدأت حياتها ثم هاجرت منذ ذلك الحين، وظلت هذه الحمامة تردد أسماءنا حتى سئمت، ولبست جسدًا لصبية، فكنتِ أنتِ. أنعمي من الحياة ما استطعت. ستعودين في الثلاثين حمامة بيضاء تردد أسماءنا، وسيأكل الطير من رأسك، ثم تأخذك إلى البعيد...

كيف لأحد أن يكذب نبوءة جدتها، وهي أول من صدقها، وانزوت في حجرتها الضيقة منذ أشهر لا تفتح نوافذها ولا أبوابها للغرباء.

تخشى الطيور أن تهاجمها، فتعود عند النوافذ، وعلى

أغصان الأشجار. تخبئ وجهها بين الستائر البيضاء كي لا تراها الطيور. تعاقبت الأيام وهي في هذه الحجرة منفردة. لا تعيش سوى العزلة. لا تستطيع أن تتخيل أنها ولدت حمامة. لا تريد أن تنتظر الخلاص. أن يأتيها من داخل حجرتها. لا تمتلك سوى البكاء. تنظر إلى طيرٍ أمام نافذتها باهتمام بالغ؛ له منقار ضخم يسمح له بالتهام مختلف الحشرات،فترى روحها كما لو كانت هي الطير الذي يحوم حول نافذتها الموصدة. تقف خلفها وتدق زجاجها.

يهرب الطير من نافذتها. فتتخيل كما لو كانت ستمضي حياتها هربًا. منسلة بين بياض غيمة وأخرى. انتشر النور داخل حجرتها الصغيرة عندما فتح الباب، وضوء صغير يظهر من كتاب يخفي نبوءة جدتها. تأكل في طقوس مرعبة حتى تقفل الباب مرة أخرى. هاربة من وجه الحياة ومن أسطورة التحقق التي وشت بها جدتها، التي صارت تظهر كدمية قديمة لا تكبر أبدًا. لم تعد تخاف الصمت المهيب الذي يخيم حولها ولا ساعات الانتظار، وهي ترى السماء. صارت ورقة لها أجنحة بيضاء كثيفة، والرياح تمايلها. نحو نوافذها، فيصفر وجهها، وتحدق إلى البعيد. يأتي ذلك الطير الذي باتت تشعر أنه سيخلص روحها، وأنه يتغذى ليعيدها حمامة بيضاء. يبدو ذلك جليًا من حضوره مرارًا وتكرارًا نحو نافذتها.

أعياها الخوف، وهي تبحث عن تفسير في الكتب. بعد أن غاب عقل جدتها، وألجمت نبوءتها في هذا التحقق الذي لم تعد تراه أسطوريًا. فيما لو كانت النبوءة عكسية

تمامًا ووهبتها الحياة. صارت الطيور تقترب من نوافذها. لا تزال تسبق أوان عمرها الثلاثيني، فكيف تأتي قبل نبوءة جدتها. لعلها كانت تريد أن تهيئها؛ لتصير حمامة، وتحمل روحها الميتة للسماء.

لم تسمع من قبل للطيور غناء بهذا الوضوح. أغلقت أذنيها، وهي تشعر بقربها والنوافذ موصدة، وهي تسأل ذاتها فيما لو تحولت إلى شيء آخر، ليس له وجود من الأساس.

لم أعد أستمع إلى حكايات جدتي الصغيرة. كأنها ماتت ـ بعد أن قالت نبوءتها ـ الموت الأبدي. كيف تريد لي جدتي شكل الحمامة؟ وأن أبعث رسائلها إلى الأحياء ممن تبقوا لها يحملون ذكراها كأمي.

انبسطت كفتا الليل. صارت مركزية نورهما تنطلق من جسدها على السرير، وجدتها تأتيها بأصوات مختلفة. تارة على هيئة طير، وتارة على صوت رياح. توشوش في أذنيها. تستمع إلى وقع أقدام سريعة، فتدس رأسها في وسادتها، وتمسك بأطراف السرير كي لا تهرب من نفسها، وتصير حمامة. جدتها تقول لها: إنها يومًا ما ستطير حول الحقول، وتشم رائحة الموتى. تهرب لتفتح الباب. تنزل بخطوات متتالية، وتغرق في بركة من ماء، كي لا تأخذها الطيور. حركات الماء المتموجة تأخذ دلالة مكانها، ثم ترتفع إلى الأعلى، وتعود إلى غرفتها. تغلق الباب تنتفض بقوة مبللة تفتح نوافذها البيضاء الموصدة. تطير ستائرها إلى الأعلى. تصرخ صرخة مدوية ثم تتحول إلى حمامة بيضاء تحمل ما تبقى من جدتها!

أَنَا الَّتِي سَأَغْزِل

لَك الْقَصَائِد عَلَى كَتِفِي

سَأَجرها بِذِرَاعِي

كَمُدُن الْحُب

وعشقي وجلالي

المطر الذي صار قطرات في يدي وحولي إلا ملابسي التي ما استطاع إليها سبيلًا جعلني أنصت إلى تناهي صوته الخافت، كيف يقرأ في اتساع بحيرة عيني ذاك التماهي الممزوج باللذة؟ ولعقات لساني لقطراته ثم انكماشه في وجهي المعتصر. لم يكن طعمُ المطر حلوًا قط، بل يشبه طعم اليقطين، أشعر أحيانًا أن للمطر صلة بالميلاد الأول للبشرية. في حين أن الشيء الوحيد الذي لم يمنحني فرصة الحديث معه هو الوقت!!

يا إلهي أيعقل أن جلالتي مدعوة إلى قهوة فرنسية في هذه الأجواء - وهي تلهو تحت المطر - متى يفهم سبب التأخير؟ أحيانًا هو نوع من اللهو. يفتح بجسدي نوافذ الطفولة، فتخرج من روحي فتاة توحي بالمطر والغناء المستمر، والقفز تحت الشجر الطويل واقتطاف الثمر وجمع الجذوع اليابسة في الصحراء الشاسعة كل ذلك يضمحل سريعًا؛ لأعود أنا التي كنتها وأجلس أمام مرآتي التي أمامي

الآن تمنحني تفاصيل ملامحي التي تضج بالزهو وخيالي يحلق بعيدًا أمام رائحة القهوة التي تضج بالبندق، وأصابعه تلامس أصابعي، كأنها تحاول أن تبعث في روحي مقطوعة موسيقية. فستاني لم يكن قصيرًا قط، كان طويلًا بحجم الانتظار، حتى وصولي إليه هناك في الغاليري. كانت خالية تمامًا سوى من رجل في منتهى الأناقة وخصوصًا قبعته المائلة. اقترب مني عانقني بهدوء. لأول مرة أشعر باندماج مسامات جلدي في مساماته. وهو يقبلني بكل رقة. طيور سكنت في معدتي الصغيرة بدأت تطلق غناءها، والمطر مستمر. أخذني من يدي نحو غرفة مجاورة.

هل تشاركينني في الباستا الإيطالية؟ كلمته أثارت طيوري من جديد. لا أعرف كيف بدأت الأكل في انغماس لذيذ؟ حين أضحت الباستا ذات الشرائط الطويلة التي لم يتمكن فمي الصغير من اللحاق بها حتى تذوقت أطرافها فمه ورأسه المائل ليصل إلى فمي.

كيف كانت كل الأشياء لذيذة تبشر بالحب؟ لم يكن هذا فقط ما حدث بيننا حتى تلك القطع من الفطر الضخمة، التي تعيدني إلى سطور طفولتي، حين كانت الحيوانات تستخدمها بيوتًا. وقطع الكرفس لم أشعر أن لها طعمًا يومًا في حياتي حتى تذوقتها إلى جانبه وكنت أسأل نفسي ماذا يصنع بنا الحب؟!

هربت كل الطيور التي في معدتي بعد أن حملت غذاء النهار ذاك، فاستكانت كل الأشياء بي. استلقينا على ظهرينا. أمسك بيدي، ثم بدأ يتأملني كعلبة ألوان سيرشقها على لوحة بيضاء. تستطيع قراءة عينيه اللتين يتراءى فيهما عشق دفين بسهولة.

كنت أحس أن الموسيقا التي بدأت تنبعث من الغاليري أشبه باحتفالية تعيد إلى اللوحات اليتيمات من الحرب وجهها الآخر، إن الموسيقا وحدها تجعلك تبصر في الألوان وجهًا آخر، طريقًا آخر، يومًا آخر، فكرة أخرى، وعناقًا طويلًا.

خمس قبلٍ على الجبين كفيلة أن تدمر إصراري على متابعة اللوحات...

ـ هل ترقصين معي؟

ـ بجانب اللوحات تريدني أن أرقص... أمام عينيك تريدني أن أرقص.. اتل علي أفكارك الآن؟

(أمسك يدي ووضعت رأسي على كتفه)

ـ أخرجي لوحاتي من الكون الذي سيتفجر عما قليل!!

ابتسمت ويداه تحيطان بي، استطاع أن يجعلني أرتفع قليلًا عن الأرض ثم عاليًا.

أخذني إلى الواجهة الزجاجية، جعلني أبصر العالم الممطر بخوف يوشك أن يرمي بي إلى آخر الصراخ.

ـ خائفة أرجوك لا أريد أن أبصر هنا!!

حتى أعادني إلى الأرض واحتضنني بشدة. قلبي وحده الذي تراقص بين أقفاصنا!

ـ مابال قلبكِ؟!

ـ روحي تتعذب وربما يسقط مطر من جسدي فيجعلني أغيب عن السموات والأرض.

ـ باسم العشق طابت روحك في أمان الله...

ـ أرجوك لا تجعلني أخافك!!

كان يحدق إلي ويشعر أن ثمة خوف حول العيون. خوف منحني القدرة على الاستمرار والبحث عن الأمان لديه.

ابتعد قليلًا أخذ الهاتف لطلب القهوة الفرنسية، ثم عاد ليمسك بي واحتضنني حتى كاد يعصر روحي.

ـ قد جعلني الرسم أكثر الرجال عشقًا.. لا تخافي شيئًا!!

الخوف الذي أعطاه الحق أن يبصر بي الكلمات ويدافع عن عشقه ووجوده.

كانت القهوة ساخنة وقد وضعت على الجانب الآخر عن الغاليري، بعيدًا تمامًا عن الواجهة الزجاجية التي تريك بتركيز على ما هو أسفلها فقط!!

أجلسني أمامه. أراد أن يستغل الفرصة ويبدأ الكلام وكنت أحدق إلى عينيه الهادئتين. تغيرت ملامحه وازدادت تألقًا، بل غادرها اللون الوردي تمامًا، وتغير صوته، وأصبح أكثر أريحية من ذي قبل. كان يتحدث باستمرار، وعندما كان يسود الصمت، ويهدأ كل شيء بيننا ويستكين. بيننا رموز ليس لها صوت. يستطيع أي شخص أن يقول عنها لغة خاصة بنا. بلا صوت... لغة كلها نظرات، وإيماءات. حين أشعر أن كل كلامه رمز واحد. أستطيع أن أفهمه بأني «جديرة بالحب» أجمل شيء في العشق هو أن يكون الآخر جديرًا به. ذهب إلى الواجهة الزجاجية فتح الستائر الطويلة ليقول لي:

ـ ها.. قد تبدلت لوحة الكون الكبرى... غادر النهار!

هناك راهبة في الصور تستحيل قطرات المطر حولها قطرات دماء. محفور على جبينها علامات غير مفهومة تعني رمزًا آخر.. ربما لتفاصيل ديانة. كان غارقًا في الكلام عن لوحاته... بينما نسي تمامًا تلك الواقفة أمامه التي بللها

المطر ضحوة اليوم. حكمة الحب بأن يجهل الآخر في حديثه كل شيء حوله، وها هو المفتون بألوانه ولوحاته ورموزه الدينية نسي من وقفت أمامه، وقد نسيت في الوقت نفسه حكمة جدتي «لا تطلب من شخص معرفة شيء هو يحبه» وبما أنني قد نسيت حكمة جدتي، وطلبت معرفة رموز اللوحة المحفورة بجبين تلك الراهبة، فقد بدأت أبحث عن أقرب فرصة لأطرح سؤالًا آخر عن شيء لا يحبه بغية أن يقف عند هذا الحد.

بدأ المطر ينهمر مرة أخرى وأنا أعود لأسأله:

ـ كيف بدد المطر كل هذا الظلام والفوضى؟ كيف سيكون شكل النهار والليل فيما لو ظل المطر ينهمر لثلاثة أيام متواصلة، ودونما توقف؟. ماذا لو استطاع المطر يومًا أن يمحو كل تفاصيل الحياة كل شيء هكذا دفعة واحدة؟!!

ـ ونعود أنا وأنت كائنات من مطر هلامية في ملكوت الله!

ألهمته الغناء معي في صوت واحد... أنشودة المطر حتى صار حديثه لي مغمورًا وهو يقرأ في تفاصيل غنائي إلى جانبه سحرًا يمنحه المطر للأنثى حين تحب!

مثل سلاسل المطر تلك التي تُجَنُّ الأنثى وهي ترتديها صراخًا وجنونًا، فأقطع صوته الداخلي قبل أن يباغتني:

- حتى المطر يظل هو الآخر فرحًا بنا!

- ولكن هل يفرح الموتى بالمطر؟!

سؤاله فقط منحني الفرصة لأبدو أكثر شحوبًا من ذي قبل، أبدو رسالة حزن في لحظة كان فيها يخاف أن يرتطم بالفاجعة فأبادر نفسي «أحقًا كان الموت سؤاله!»

صار مع ملامحي البائسة يائسًا من أن يبوح بشيء أخافه أكثر من المرتفعات والجسور.. أكثر من الطائرة والجبال.. أكثر من السلم المتحرك من كل هذه الأشياء كان يدرك أنه ارتكب خطأ آخر يشبه خطأ إخافتي الأول.

إني أحتاج إلى مزاج خاص لأعبر فيه عن مدى حزني من الموت، حتى تركني وبدأ يحدق إلى تفاصيل الكون عبر ضباب الزجاج راسمًا بأنفاسه ورقة جديدة لا يدركها إلا شخص متأمل يبوح فيه عما يختلج في أعماقه تلك اللحظة. كان يرسم وجه امرأة على وسادة وشعرها متناثر كما لو كان من السماء يهطل!؟ كان يرسم، ويعاود محو كل ذلك، حتى صار فراغًا من خيال لا يمكن إدراكه. تظهر الخطوط، ثم تختفي، وتعاود الظهور بشكل آخر حتى أصبحت محصورة في اللاجدوى في تفسير ماهية الخطوط تلك! بعد أن غرقت في حالة التأمل ترك الزجاجة وجاء إلي:

- ما رأيك أن ترسمي لي على اللوحة البيضاء؟

ـ أنا لا أعرف الرسم.

ثم اقتربت أكثر من اللوحة... خطوط وانعطافات كأني أريد أن أستخرج من كل هذه المتاهات فانوسًا سحريًا. أدرك تمامًا أنه لا يسخر مني، وهو يعرف جيدًا أني لا أجيد الرسم أبدًا، لكنه يريد أن يلتقي ما في داخلي من رغبة تستقر في اللاوعي هناك!

اقترب أكثر من ألواني الدكناء ليظهر بصيص نور ضئيل.

ـ أليس هذا ما تريدين الحصول عليه؟!

ـ بلى!!

جعل من ظلمتي بصيص نور يشتعل ليضيء أكثر فأكثر، ويصبح بقعة من ضوء شاسع حلمت بشظايا مرآتي لأعكس الضوء الذي أحسه حقيقيًا لعينيه. الوقت مضى بيننا. انغمس النهار في الليل حتى كاد الليل ينغمس في صباح آخر.

ـ بم تحلمين؟

ـ بأن أصبح نجمة، هو حلم يرافقني يا صاحب اللون.

ـ نجمة.. نجمة..أعرف تمامًا أسماء النجوم جميعها لكنني لم أجد اسمك بينها؟!

ـ قلت لك هو حلم.. ما أنا بنجمة!

سأذهب... حملت حقيبتي وتركت قبلة واحدة على وجنته.

ـ عودي إلي إذا توقف المطر.

ـ لقد انتهى المطر. كل المجرات الكونية اغتسلت بطهر المؤمنين، تظهر بوضوح عاشق لوحة من الضوء. تهيمن الآن تظهر القمر والنجوم بوضوح أكبر، أخرج مرة واحدة خارج الزجاج لتشعر بروح المطر التي غادرت، وغسلت أرواح العشاق، وكيف ستدخل أجنحة الشمس في الغد على سماوات أرواحنا؟

تذهب... لا تعش حياتك بعمر قصير..

يحتضنها بشدة، ويلمس أطراف أصابعها وينغمس في شفتيها؛ ليستخرج المقطوعة الأبدية.

وَلِأَن بَاب الْجَنَّة مَازَال مُغْلَقًا

عَلَيْنَا أَن نَرْتَكِب ذُنُوْب الْحُب وَنَتُوْب

وَمَتَى مانزَع الْلَّيْل حِجَابَه

وَظَهَر وَجْه الْصَّبَاح بَيْنَنَا

سَتُثْمِر الْأَمَانِي

وَغُرُوْر الْأَشْيَاء دَاخِلِي

لَك وَحْدَك تَفْسِيْرهَا..

حول أنوثتي يحوم شيخ(*)

منذ أن أصبحت أنثى؛ اختلفت كل المقاييس في حياتي، في الكلام معي، في نظرة الآخر إلى تصرفاتي. حتى جسدي برزت فيه مفاتن الأنوثة وبشرت بها ؛فبهت قلبي هذا القصير لباس الحرام.. هذه الموسيقا صوت الشيطان الذي بك أخرج الكون من الجنة فلا تحاربيه، بل حاربي ذاتك. أما الآن فلم أعد أريد شيئًا إلا أن أستوعب كيف صدقت كل الإناث تلك الخدعة؟ كيف تحملن الصبر بدلًا من المواجهة؟ كيف آمنت النساء أن غاية الجسد هي الشيطان؟ كيف كان بمقدورهن احتمال الأذى؟ أي برهان هو الذي بيدهن وفي نصحهن لنا، وجرأة تعقب نكوص أنوثتنا حتى لا تفسر بمآل الشيطان، وأي مسخ للرذيلة سيحيط بقوام هذا الجسد؟!

(*) الشيخ إشارة إلى الرجل المتدين الملتحي في المجتمعات العربية ولا يقصد به الرجل المسن.

حين مررت في شارع طويل لأعبر ـ كان النهار يلتوي داخل صفائح النور، وينجلي ـ ظهر رجل ملتحٍ يبدو في الأربعين من العمر في «كوفي شوب» في مدينة الرياض، وضعت حقيبتي السوداء المرصعة بقطع ذهبية صغيرة، وهاتفي الذي يحمل غلافه الخارجي صورة كاملة لوجه امرأة، وشعرها يسترخي على إحدى المسطحات الخضراء على طاولة خشبية مستديرة. جلس قبالتي إلى طاولة أخرى. اقترب مني النادل. فتح نوتة صغيرة بحجم الكف، وبدأ تدوين مشروبي المفضل «الكابتشينو» اللذيذ. هنا انصرف، فخلعت نظارتي الوردية الشفافة، التي تخفي نصف وجهي خلفها، وخلعت حجابي لتسقط خصلات شقر على وجهي، ثم رفعت شعري بنظارتي. أخرجت كتاب Weeds Don't Perish من حقيبتي. فتحت الكتاب، وبدأت أقرأ. رفعت عيني... رأيت النادل يضع له شايًا أخضر أو أحمر لم أركز تمامًا. أشرت إلى النادل فانتبه لي واقترب مني. طلبت خلطة غريبة كانت كذلك تبدو من نظرات النادل إليَّ. قلت له: أريد كابتشينو ورغوة تكاد تصل إلى السماء، مع قطع أوراق من النعناع الطازج متساقطة عليها، أو خلطة مركبة. أريد أن أتذوق عصير برتقال مع النعناع. لا أريده مع الليمون، وإن أمكن مع الفراولة قال لي النادل: وكيف ذلك؟ نحن لدينا قوائم ونكهات جاهزة!!

قلت: إن كنتم تودون الاحتفاظ فعلًا بأكبر قدر من الزبائن الخاصين فأفعل؟

قال: حتمًا سأفعل وبابتسامة كبيرة وإيماءة رأس تراجَعَ وابتعد.

نظرتُ إلى الرجل الذي مازال يجلس أمامي. لم يحتسِ كوب الشاي الذي طلبه. ظل مطرقًا وكأن أمرًا ما يزعجه. يبدو لي في حالة حب. هناك من يقول لي في داخلي هذا الإحساس، ويؤكده بشدة. عدت إلى قراءة كتابي من جديد، وكأنني نسيت أمره، فقد تشاغل بأمر آخر. هل أصدق بعض الإشارات التي توحي لي بأن حكاية ستحدث يومًا ما؟ لكني أجهل متى ستبدأ تلك الحكاية التي بدأت بنظرات لي؟، وأنا كحمامة أنظر إليه بشكل لا يوحي سوى بالترقب. لا معنى لأي شيء يحاول أن يشعرني به لا معنى لما أفعله إلا لي، ولا لصمته الذي أودعه ساكنًا للحظات، كيف لي أن أصلح الحياة داخل خراب الآخرين؟ كيف لي أن أعيده كما كان قبل أن يتلوث وينزوي ويبدأ بكراهية نفسه؟ هذا الرجل المتدين يثير دائرة اهتمامي. هاهو يقف يميل ظهره للخلف كأنه تعب من الكرسي، وأقف أنا أيضًا حاملة حقيبتي، وأضع هاتفي داخلها، ثم أحاول أن أدخل «الكوفي شوب» بحثًا عن مرآة، نسيت كتابي على الطاولة، وحاولت أن أدفع الباب الزجاجي الثقيل... تبعني هذا الرجل من خلفي،

همس بصوت منخفض انتبهت له، فابتعدت قليلًا. دفع الباب بقوة ليترك لي مساحة للدخول نظرت إليه. كيف أدرك أني لا أستطيع أن أزيح الأبواب الثقيلة أو أحمل الأشياء الثقيلة أيضًا؟ كيف أدرك كل هذا وأنا التي منذ فترة طويلة أعاني ألمًا في عنقي؟ يا إلهي كيف تحدث الأشياء بترتيب رباني؟ دخلت غرفة صغيرة تسبق دورة المياه هناك مرآة طويلة جدًا وكرسي مخملي أحمر منفرد، وموسيقا هادئة تحيط بالمكان، فلا تكاد تسمع سواها، وكأنك في معزل عن الأماكن الأخرى، وعن صخب الشارع الذي كنت أجلس فيه قبل قليل. هنا فتحت حقيبتي، وضعت طلاءً لامعًا. أنزلت رأسي للأسفل فسحبت قطعة سوداء ووضعتها كإيشارب على جبيني، ثم رفعت رأسي إلى الأعلى فعاد شعري إلى الوراء. تركت عطرًا صغيرًا ينتشر، عدت، فتح لي النادل الباب الزجاجي الثقيل، فوجدت زهرة حمراء على طاولتي... انتابني جنون كبير وعصبية. أمسكت بالزهرة من أعلاها كما تساق النعاج للذبح. ألقيت بها على طاولته، ونظرت إليه بازدراء كبير، وقبل أن أتفوه اقتربت سيدة، وأخذت الوردة، واعتذرت أن طفلها حملها، ووضعها على الطاولة، وانسحبت وتركت لي خجلي متواريًا في نظراته. تراجعتُ بدون أي كلمة. لم يُعِرْ هو الآخر تصرفاتي أيةَ أهمية. خفض رأسه وبدأ يحتسي كوبه دون أن يشعرني حتى بحجم الخطأ الكبير، واتهامي له، وتحول قلق اللحظات إلى كارثة

أنتظرها تأتي منه على هيئة كلمات يسحق بها كرامتي، لكنه لم يفعل... ظل محافظًا على ماء وجهي، ولم يرقه لي. لو فعل بي أحدٌ الشيء نفسه. أعرف أني سأحطم الكون على رأسه، وألقي به من أقرب نافذة، ولن أستمع إلى تبريراته مهما كانت. لكنه لم يتكلم قط. لست أدري أي شعور بالذنب امتلكني. ماذا فعل لأكرهه وأمقته دونما سبب؟ لماذا لم أنجُ من عدائيتي أنا الأخرى. لماذا صرت أتقن الضدية تمامًا، وأجابه بالاستحقار في هذا المكان؟ ظننت أن الثمن الوحيد الذي سأدفعه هو ثمن «الكابتشينو». لكنني ها أنذا أدفع ثمنًا إنسانيًا باهظًا. ذهبت إلى السيدة. طلبت منها أن تهديني الوردة التي كانت سببًا لكراهيتي نفسي هذه اللحظة. قالت لي: هي لك. أخذتها واقتربت منه. رفع عينيه... نظر إلي، وإلى وردتي، ثم خفض عينيه حتى لا يراني وضعت الوردة. قلت له: جئنا نعتذر أنا والوردة. قد أسأنا إليك. نحن آسفتان. هي لا تعرف الكلام، لكنها تريد أن تعتذر مثلي. أعترف أني لم أقابل يومًا شخصًا يختلف عني. لكن هاأنذا أمد إليك وردتي اعتذارًا بسيطًا لن يليق بك أبدًا لو صفحت عني؟!

قال لي:

ـ بأيهما تشعرين بِالكراهية أم رفض فهم الآخر؟

ـ أنت من الأشخاص المكروهين عندي...

ـ لماذا؟

ـ لأنك تمثل فئة، ولأن لديكم همجيات لا تغتفر. تكرهون كلّ من هو مختلف عنكم. ليس في داخلكم مساحة لتقبل الآخر. ليس لديكم عطف ولا إنسانية، ولا حتى صفح. تنقصكم الحضارة والمعرفة. ينقصكم الكثير وأقسم من داخلي ـ وإن أغضبك هذا الشيء مني ـ لو كان الموقف معاكسًا لما أتيت إليَّ تعتذر، أليس كذلك؟

ـ نعم أنت محقة، لكن في جانب شكلي مني. إذ أنا من الداخل لا أنتمي إلى هذه الفئة التي تصفينها بهذه الصفات.

أنت مثقفة جدًا تقرئين كتابًا وأنيقة وجميلة. ينقصك أن تتأكدي من أي تصرف تجاهك قبل أن تتسرعي في غضب بإطلاق أحكامك.

ـ لماذا كنت تنظر إلي بتأمل عميق؟

ـ كنت أنظر إليك كما كنتِ تنظرين إلى الوردة الآن، وليس سابقًا، نظرة إعجاب، كنت أنظر إليك قبل غضبك، كنتِ تشبهين الوردة، وأعرف تمامًا لو ترجمت لك شعوري كنتِ ستشمئزين منه؛ لأن شكلي لا يعجبك إذ أظهر متدينًا جدًا. كنت أفكر بنظرية: استمتع بيومك، وأجدك تمثلينها أمامي بكتابك، بانتظارك، بتفاصيل حياتك المشبعة من

اختياراتك، هذا لا يحدث عند كثيرات غيرك. أنتِ لديك زمن خاص، هو لك، على ساعتك ومواقيت أذانك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنك تمتلكين رقيبًا صغيرًا؛ عصفورًا، احبسيه داخلك واجعليه يقرأ لك تأمليًا وينقد ذاتك بشكل خاص، لا تطلعي عليه أحدًا.. هل تشاركينني في قهوتك وتجلسين أمامي، أريد أن أتحدث معك.

ـ سأفعل...

ـ أعلم تمامًا أن إخضاع معتقداتنا ويقينياتنا الخاصة إلى انتقاد الآخرين هو أمر مؤلم لا نتقبله حتى الخاص بنا وبيننا وبين ذواتنا يجعلنا نملك سخرية خاصة من أنفسنا لكن هذه السخرية هي الوسيلة الوحيدة التي تجعلنا دائمًا متجاوزين ذواتنا...

ـ حديثك معي جعلني أرغب في نوتةٍ خاصةٍ إلكترونية أكتب فيها هذه الحالات التي تعتريني جراء هذا التقليد الفلسفي الموحي.

ـ مباركتك القصوى لحديثي جعلتني أسهب فيه وأغيِّر لون حديثك الشاحب بالرغبة في الغفران.. يا آنستي ما الذي يجعل أنثى بجمالك وحضورك تقبل دعوة رجل يبدو متدينًا ولو شكليًا وتأنس لأحاديثه؟

ـ ربما هو تصالح الذات داخلي ومسارات فتحت أنت لها الأبواب كلها لتعمرها أفكارٌ مغايرة، وصورة جديدة للفكر، وأحداث صغيرة تحدث صدفة دفعت بي أن أحاول إصلاحها المثير في الأمر أنك تحاول أن تصل إلى معانٍ توصف بالتصوف دون أن تكون متصوفًا؟!

ـ كان غاندي يقول: «يجب أن نحمل بداخلنا العالم الّذي نريد». أنا لا أدعي المثالية، وهناك مبادرات خلاقة كتلك التي دفعتك لتعتذري بالرغم من كراهيتك المبطنة لي، وتصورك سلفًا عن فكري ونهجي وسلوكي. هذه الرغبة الداخلية هي التي دفعتنا لنكون متواجهين، نقول ما نؤمن به، ونؤمن بما نقوله، نرد أنفسنا بأنفسنا، لا شيء يغير من صلابة آرائنا سوى إرادة حاشدة بالتعايش مع الآخر المختلف، والتعامل العفوي، ومحاولة فهم الآخر، وعدم الاستسلام للقوالب الجاهزة وأن نتعلم أن لا نطلق سراح أحكامنا المسبقة تجاه الآخرين التي تشوه جمالنا الفكري، وأن لا نصنع من اختلافنا أعداءً لهم أشكال محددة وسلوكيات ناشزة، يجب أن نفتح الباب لوجهات نظرنا وتصوراتنا عن الآخر، يجب أن نؤمن أن الآخر هو مقياس ذاتي، وليس اجتماعيًا وأنه يملك استقلالية فردية، وأن نتعلم القدرة على مد يد التواصل إليهم ولو قطعت بنا.

مدت له يدها. صافحته بإيمان كامل: أنَّ خلفَ

الشكلِ شخصًا آخر أبدًا لا يمثله، ثم تركت كوبها المركب مثل كلامها المركب. ودعته بابتسامة، وسارت في الطريق. بدأ المطر ينزل، وبدأت تبتسم بعمق.

أَنَا الْمَخْلُوْعَة مِن بَاب الْجَنَّة

وَأَنَا الْصَّبِيَّة الْفَاتِنَة

الْعَارِيَة

الْمُثِيْرَة

الْمُسْتَبِدَّة

أَنَا شَيْء يَصْعُب حَل لُغْزِهِ

وشَيت بِه لِلْقَمَر

لَدَغَنِي مِن أَسْفَلِي

فَسَال دَمِي

لُعْبَة لِلْشَّيْطَان

أُمَارِس غوَايَته

عن الشيطان الذي في روحي أحدثكم!

خلاص الروح ليس نزعها من الجسد، بل نظرة تمد في اتساعها أبعد من حلم. تأتي الرياح على أصابعها السفلى لتهز نوافذي، فيخرج خوفي إلى الشارع. هناك يسمع صوت النبض والأنفاس ترتفع هناك. يحتمي بجدار حجري، ويهرب من وجه المطر قبل أن يبلله أو يبتل به، فتنمو شجرة كتلك الشجرة المحرمة التي تعلق برأسي الآن. سأسرق منها كل تفاح سيخرج منكم جنتكم، والشيطان الذي بين أناملي يتضخم تارة، ويصبح صغيرًا وهو يحيط بأناملي كحلزون.. أنظر إليه وهو يسير. ستيني الخريف. يرتدي سروالًا أبيضَ وقميصًا يميل إلى اللون البني. يحمل كتبًا يصففها في المكتبة ذات الرفوف الخشبية المعتقة. يسمع كلماتي وأنا أدونها متقطعة على جهاز الكمبيوتر.. قال لي:

ـ هل ذلك يعني أنك لا تؤمنين بخلاص الروح؟

ـ إن كانت الروح خالدة لا تموت!!

ـ كيف وقعتِ في الحب إذن؟

ـ ما شأن الحب بالروح أهما وجهان لعملة واحدة؟

ـ شأن الحب أجيبي؟!

ـ بسؤالك هذا كأنك تقول لي: إن الإنسان مضطر دائمًا إلى تبرير الحب؟!

ـ هذا غير صحيح يا صغيرتي.. كل لحظة مخصصة للحب يجب أن نقف أمامها

ـ يبدو لي أن الأمر ليس كذلك، ودون أن نتعمق لك أن تبحث في مستوى الإيمان لتكتشف ماهية الحب!

ـ ها نحن وصلنا إلى بيت القصيد!

ـ لا تقل لي بأن كل هذا لا يأتي من مكان ما..بدون الآخر كيف يمكننا أن نحب!وبأي مقياس آخر. كم سيظل يعيش فينا حتى تلك اللحظة الوليدة!

ـ سأذهب لأستبدل الكتب من على الطاولات بكتب أخرى جديدة وتذكري أنني أنتظر منك إجابة!

ابتعد إلى تلك الطاولات التي تغطى بقطعة دانتيل بيضاء لم تستبدل منذ وقت طويل وبالرغم من العناية الفائقة التي تنالها إلا أن أطرافها تبدو مصفرة. حتى الورود البلاستيكية التي يضعونها في كل مكان. أصبحت أكره الورود لهذا السبب فقط؛ لأنها تُشعرني دومًا أنني مهما كنت حقيقية ستظهر نسخة بلاستيكية مني!!

أراه يعيد ترتيب الأشياء وكم تمنيت لو اقتحم أعماقي هذا الرجل ورتب مشاعري على رفوف وعزز داخلي ذاك الشعور أنّي مكتبة. وبالرغم من وجود أهم المكتبات في العالم وبالرغم من أن ثقافة الشعب منزوعة منها القراءة وبالرغم من كل هذه الأشياء والتحديات الكبيرة وبالرغم من أن هناك مكتبات تضم 29 مليون كتابٍ وغيرها من المواد المطبوعة بلغات كثيرة وأكثر منها الوثائق 130 مادة مختلفة كيف سيواجه هذا الاختلاف الكبير بهذه المكتبة البسيطة. أقسم إن في منزلي نصف هذه الكتب. سأفكر جديًا أن أشرع أبواب منزلي للزائرين حين أقترب في كتبي من هذه المكتبة البسيطة نظرت إليه وهو يقترب وقلت:

ـ بصدق كيف ستتعامل مع الوسائط المتعددة فالمكتبات الآن أصبحت تصورية!!

ـ لا أنا بلغت من الكبر عتيًا.. الآن أعمل جزئيًا فقط. في المساء يأتي شاب يعمل مكاني وهو المسؤول عن هذا الجانب الآن أصبحت أقارب النهاية..

ـ وهو ما كنت أخشاه فعلًا أن آتي مرة أخرى ولا أراك!

ـ هناك دائمًا مستقبل جيد وسيّىء ولكن أجمل ما في ذلك أن هناك دائمًا مستقبلًا تذكري هذا جيدًا.

ـ وكيف يمكننا تسمية الأمر؟

ـ ما لم يعرف بعد!

ـ حسنًا! يمكنك أن تسمي ذلك كما تشاء!

ـ لم أفقد خريفي بعد.. أجيبي!

ـ عن الحب هل تريدني أن أجيبك عن الحب.. الحب أسوأ ما في الأمر

ـ لا تقولي لي بأن كل هذا لا يأتي من مكان ما.

ـ حتى وإن كان الأمر في النهاية هكذا. ماذا تريدني أن أقول؟!

سأخبرك..يومًا ما ولد معي اعتقاد بسيط. لكنه كان يكبر معي يومًا بعد آخر. اعتقاد أن الحب نهاية جميلة لكل قصة. إدراك بسيط لفتاة بسيطة.. لكن ذلك لم يحدث قط..أضعت الطريق ولكن لم أفقد بوصلتي. هناك حب اكتشفت ذلك أخيرًا. لكنه يعيش داخلي وليس في داخل من أحببت.. أخفقت كثيرًا أحببت الرجل الخطأ، والزمن الخطأ وترك بداخلي الجرح الكبير لكنني بعد وقت طويل أدركت أنه لم يكن حبًا. كان تجربة!

ـ أنت ترددين أفكارًا عاطفية لكن إيمانك بها بلغ حد الكفر؟

ـ ظننت يومًا أن الحب حالة إلهية!

ـ الإله لا يظلم لكنهم ظلمونا؛ لأننا أحببنا هذا الشعور الذي في داخلي تجاه الحب أصبحت كارهة له ولحضوره ولحديثي عنه.. الأشياء التي خارج الحب أجمل.

ـ انظري إلى ما يحيط بك. الحب غير أشياء كثيرة بك.

- الحب يصبح باردًا إذا خرج وهأنا أتجمد.

- هل تأتين إلى صدري؟

ذهبت إليه. وضعت رأسها على صدره. ظلت لأعوام هكذا حتى أدخل يده في جيب سرواله وأخرج لها طفلًا جميلًا .

شَحُبَت بِالْخُرَافَات الَّتِي مَا اكْتَمَلَت
أَمُد ذِرَاعِي لَه بِالنُّوْر
وَأَصِيْر فِي مَوْجَة احْتِفَالِي
يُمْسِك بِهَا
وَيَقْرَأ الْأَرْوَاح فِي رُوْحِي
حَمَامَة بَيْضَاء تَصِيْر ذِرَاعِي
يَسْقُط تَاج الْحِلْم مِن سَمَائِي
أُنَادِي وَالنَّار تَخْرُج مِن فَمِي
وَظِلِّي يَحْتَرِق خَلْفِي
يمَتْدُ ثُم يَتَدَلَّى بِحُزْن الْغَرِيب

نيويورك تنتظر

أدرك تمامًا أن الحديث أقدر على التعبير عن المشاعر. هو رجل يختلف اختلافًا جذريًا عن انتمائي المكاني والثقافي والتاريخي أيضًا، وأنا التي أتيت إلى نيويورك هاربة من وجه الذكورية في الحب. هناك لدى مجتمعي الذي حاصر الحب في زوايا ضيقة، حتى صار الحب مجنونًا، وتبدلت ملامحه ومعانيه، وإيحاءاته. الحب أضحى خافتًا في مجتمعي. له روح الخشية، والملام. له تفاصيل العار، وإشارات الخطيئة. في بلدي الحب يظل قابعًا في الظل، يتكون بطريقة لا تطاله أيدي الشمس، بل أبعد من ذلك، فهو رجس من عمل الشيطان. الحب جعلنا نستخدم أعيننا لِتُعَبِّرَ، وتقبل، وتلمس، وتستشعر فقط بالعين المجردة. يا إلهي كم خملت حواسنا في الحب، ما عدا النظر، وتلاشت كل القيم التعبيرية للحواس الأخرى. في مجتمعي يحال الحب؛ كما في التحليل النفسي الذي يحيل أفكارنا ونوازعنا ورغباتنا إلى الجنس؟!

الحب له اتجاه واحد ما عداه هو خيار يقودك إلى

فقدان ذاتك. كل شيء لم يساعدني هناك أن أحمل بداخلي نقاءً للحب بدون ملامسة، حتى لو كانت ملامسات عذرية كالقبلات، أو عناق الجسد والأيدي، لذا هربت من فلسفة حصار الحب هذه، لمشهد الرجل الذي لا يريد أن يلغي قدسية الحب داخلي، وهنا بدوري لا أنكر أني حاولت أن أتجاوز صورة الحب التقليدية، ولا أعتقد أني نجحت تمامًا.

تعبت وأنا أعايش هذا الصراع، وفي محاولة استبدال الصورة الذهنية في اللاوعي، حتى في داخل الأشخاص الذين كنت أظن أن لديهم مستوى في الثقافة والفكر، لكنهم لم يتجاوزوا تلك الطبيعة المكتسبة عن أفكارهم وتصوراتهم عن مفهوم الحب والآخر. هنا أحاول جاهدة الاستعانة باللاوعي، وهنا عشت الخيار وكأنه لا يتكرر.

هناك من يحبني، وأنا التي سأستقبل الحب، لكنني كيف سأتخلص من رداء مجتمعي الموروث في الحب؟، كيف سأحاول إسكات اللاوعي داخلي، وأقرر مصير يومي؟. أفكر فيه، وأعيشه تصورًا لا أعيشه أبدًا.

هل هي عقدة نقص تسربت إليَّ؟... حملتها من هناك وأتيت بها، وعاشت معي وبالرغم من سني الاغتراب، وبالرغم من وجه الغريب الذي ألفت ملامحه، ونظراته، وتساؤلاته. متى يحين الوقت؟! نيويورك تنتظر... يارب خلصني من ترسبات تلك الجذور التي جعلتني أنا ومن أحبني في إطار مختلف.

خرجت أحتمي بالمظلة. المطر ينهمر. حقيبتي تبللت. أطراف «البوت» البني، وحتى معطفي الأسود الذي أرتديه تبلل بعضه هو الآخر، لكنه كداخلي يتبلل بالتفكير في المرجعيات ولا أحد يرى أثرًا لهذا البلل!!...

هاأنا أراه... أسير بنفس الوجوه التي حولي، والمعاطف. الأحواض المستطيلة التي تظهر نباتات قلمت لتأخذ أشكالًا مختلفة، وجوه أبراج، أشكال هندسية. أغلقت مظلتي، دفعتها إلى الأسفل، فتحت المعطف الأسود. تركت ساقي تتبللان بالمطر كطفلة صغيرة منحت نفسها لفرح المطر، وقفزت على سقطاته. تركت نفسي لشيء كنت أخافه، تركتها للمطر. جعلت ازدواجيتي تتبلل بين حب الآخر ونرجسية الذات... أيام كثيرة جعلتني أدرك أن الحكاية ستصبح لغزًا في وقت قريب، وتفسير كل الأيام، بل الشهور التي جعلتني كل يوم أراه فيه تكبر في داخلي قدرتي التفسيرية للحب والحياة والذات والآخر كل شيء عدا موقف مجتمعي من الحب، حين أردت أن أكسر زجاجة اللاوعي، وأتوقف عن احتساء ذاك النبيذ الذي أسكرني بموقف مجتمع مازال بعيدًا عني... أفكر فيه أكثر من تفكيري في الحب، وكيف أتعاطى معه؟ أو ماذا سيقول حين يلمس كفي؟!

أبدو بنظرة واعية جدًا لمقاصده، مدركةً لنظراته، بعيدًا جدًا عن مشاركته والتعايش معه بشعور موحد كل ذلك كي لا أتلقى الصدمات حين أفكر فيه. سيخاطبه في حبي ثلاثة؛ جسدي وروحي وقلبي، وأيها سيصل إليه برسائله

أولًا؟ ومن هو الذي باح له فالتهمه بالنظرات والإشارات؟ وهل أجاد التعبير عن مشاعري؟!

كيف سأترك ظرف كلماتي إليه؟ هل تركت له شيئًا من عروبتي في الحب كطلاء أحمر وقبلة على جبين ورقة بيضاء أو خصلة شعر طويلة؟! أوووه كيف سيدرك كل تفاصيلي العربية في الحب؟ كيف سأتخلص من كل هذا؟ أكره ذلك، كيف صار المجتمع يشعرني بالاشمئزاز حين يفسر الحب ويختصره بعضو واحد من الجسد؟!! وبالرغم من أن الحب عدا ذلك بكثير؛ الحب بلا روح لا معنى له. هناك أشخاص لهم ملامح لا تتغير، نظل نحبهم بجنون، ثم نتخلى عنهم، فتصبح الملامح ذاتها التي أحببناها هي التي كرهناها. إذن الحب والكراهية يكمنان في جمالية الاختيار. إذ لا شيء يتغير في الملامح، فقط الأرواح تتبدل، هذه الروح التي لا ترى هي سبب الحب والكراهية معًا. توقف المطر وتوقفت عند إحدى الواجهات الزجاجية. خرجت منها وبيدي تمثال صغير لملاك يستدير داخل كرة زجاجية شفافة، وحوله تتطاير آلاف الأوراق الفضية الصغيرة جدًا تلتمع كأنها شعاع مساس، أو نور على سطح بحيرة أونتاريو(*)... راقتهم فكرة صيد تلك المساحات الشاسعة من النور التي تلتمع، وتعلو

(*) بحيرة أونتاريو (Lake Ontario) أصغر البحيرات العظمى الخمس في أمريكا الشمالية ومن المدن الواقعة عليها مدينة تورونتو في كندا. يبدأ منها نهر سان لوران مسيره نحو الشرق قرب مدينة كينغستن.

سطحها. أسير وقد نسيت مظلتي. بدأ المطر ينهمر من جديد، ليس معي سوى هذه الكرة... كنت أفر هاربة من المطر، أركض فتثار اللمعة من جراء جرياني وأنا أشبه ذلك الملاك...

المطر يتلاقى مع اللمعة، يثيرها ملاك ضخم في السماء، والكون كرتنا الزجاجية التي لم تجدِ محاولاتي للخروج منها. هناك بحثت عنه في كل الوجوه، أردت أن أتكلم معه، أبوح له، صعدت الباص الأحمر ذاته، انزويت في آخره هذه المرة، كانت الواجهة الأخيرة لي أنا فقط، لم يشاركني فيها أحدٌ، انسحبت كل الأجساد بقيت أنا آخر من استجاب لنداء النزول الأخير.

بِخَيْط الْضِّيَاء

وَكُرْسِي يَهُز الْقَمَر لِيَرْوِي حِكَايَاتْي

تَجْتَمِع حَوْلَه الْنُّجُوْم وَتُصْغِي بِالْتِمَاع

حَتَّى الْحَنِيْن يَذُوْب فِي فَمِي

أَنَا تِلْك الَّتِي مَاعشِقت سوَاهَا

أُغنِي لِسَمْع الْمَسَاء بِيَأْسي

عَرَفْت الْخَلَاص جَسَدًا مَيّتَا

وَعِشْرُوْن صَيْفًا يَقْتُل شَمْسَه

وَقَوْس وَرَد فِي مَأْتَم الْذُّبُوْل

يَا آلِهة الْلَّيْل

اقْرَئِي فِي وَجْهِي غَيْر الْهُرُوب

وَإن بَكَيْت أَدِيْرِي عَنِّي الْعُيُون

فَعَصَافِير الْدَّمْع

رغْمًا عَن الْظُّلْم تَطَيْر

الجانب الآخر للضوء

بين الريح والمطر الذي يتساقط كقطرات لا تلبث أن تتلاشى من يدي الممدودة للسماء؛ ضوء خافت يضيء تلك القطرات التي تهبط في أول مساءات يونيو الساخنة، وأنا ما زلت أحيي رميم كلماته داخلي:

ـ ماذا سترين في العيون سوى الخوف أو العشق؟ هما الشيئان الوحيدان اللذان يختبئ الكلام خلفهما.

وحده الذي يقطع مجال الرؤية، ويجعلني أنسى كل شيء، ما عدا صوتًا ينبض مع ارتعاشة جفوني المغمضة بشدة بسبب المطر الذي يهطل الآن، ويستحيل مع هذا الليل البهيم إلى ذكريات وقلق أخشى أن يحيي عظام الموتى.

ـ لا تسرع في المجيء؛ الجو ممطر وينبئ بأشياء أخرى.

البوابة الرابعة ترقد في سبات. حتى الحراس وغرفة

كلاب الحراسة البوليسية أيضًا.. ثلاثة أمتار تفصلها عن القرميد الأحمر الذي يغشى المباني المتشابهة. الظلام الذي يكشف جسد النور العاري، وهي تهمس لذاتها بأغنية قديمة، تمسك قصاصة شرب منها الزمن ما شرب حتى اهترأت.

ـ أنظر لماذا تخلو خارطة العالم من الشمس والقمر؟

ـ صنعوها للأرض...

ـ بل للسماء والأرض معًا؟

ـ أخبريني كم عالمًا جاهلًا تعرفين؟!

ـ أعرف ثلاثة رابعهم أنت!

أدارت المقبض الذهبي باحتراس. خرجت مسرعة إلى الشارع الخالي تمامًا حتى من ضوء القمر. وصلت إلى مواقف السيارات الخارجية. حاولت أن تبطئ خطواتها، وتوقفت لتلتقط أنفاسها. لمست بيديها المكان باحتراس حتى جلست في تلك الزاوية المظلمة. وصل إليها، جلس بجانبها ككائنات من بقايا الليل غارقة في ظلام دامس، أمسك بأصابعها ظلًا لثوان يستمعان إلى سكون يحيط بهما كموجة.

ـ خلف الجدار دائرة من الضوء ترسم الأرض مضيئة أكثر من أي وقت مضى.

خارطة تضيء الأرض والسماء معًا تخطف بصرك

تمامًا حينها أخرج جهازًا إلكترونيًا، وشد يدها إلى الخارج، حيث سجادة تفترش السماء.

- حركيه قليلًا نحو اليسار وأخرى حول اليمين وانظري إلى النجوم.

أمسكت بالجهاز وقامت بتحريكه ثم بدأت تقرأ أسماء النجوم.

- أيتها الفلكية الفاتنة انظري إلى النجوم حولك ألم تحلمي أن تكوني يومًا نجمة؟

- إنه مذهل...

حملها إلى الأعلى، وصرخت ضاحكة.

- لا أريد للسماء أن تسرق نجمتي... لديها مليارات النجوم لا أريد للسماء أن تأخذك بعيدًا.

الخريف لن يسقط

أوراق وردة خبأتها

قميص وربطة عنق

شاحب هو الحزن الذي يبعدنا عن تفاصيل الحياة ثلاثة.. أسطر من كتاب تكفي بأن تجعلني أسرح لأبعد من الوقت الذي يستغرقه إنهاء الكتاب بأكمله. كان بعيدًا مثل فنان يتصيد لحظة يحولها داخله إلى فكرة، ثم لوحة، كوب قهوة، جهاز آي باد، وشرفة تطير بالهواء إلى كل شيء حتى أفكاري. ثلاث ساعات جميعها تعمل بتوقيت مختلف. ألبس واحدة تلو الأخرى، ويبدو السؤال ملحًا إن لم يكن ضربًا من الجنون، أو عدم قدرة على الاكتفاء. ماذا تسمي هذه الحالة؟

في آخر مرة سُئِلْتُ هذا السؤال أجبت:

الأولى لوالدي الذي مات، وحين رحل ترك لي العمر، والثانية لخالي أيضًا الذي جعلني أحمل ملابسه ونظارته السميكة ذات السلسلة الذهبية التي تمسك بأطرافها، والقليل من الصور وكثيرًا من الذكريات. الثالثة هي سرٌّ لا أملك البوح به. لابد أن يبقى شيء خاص يزين غموضي!!

بدأ يقترب قاطفًا اللحظة. تصبح ملامحه أكثر وضوحًا، بل مثل ملاك هارب من السماء. أغلقت الكتاب الذي

يجعلني غارقة في سرحان لا يراه الآخرون إلا قارئة نهمة تعشق تفاصيل ما تقرأ بتركيز. تنفصل به عن الحياة تمامًا. لو تحولت الأرض إلى كوكب آخر لما أحسست بذلك أبدًا.
صعد الدرج الخشبي. لا تكاد تسمع صوت الرجل الآتي من بعيد. بدأت تعود إلى تركيزها. الشرفات التي حولها احتشدت بالناس، تلتفت سريعًا، تحاول لبس ساعاتها الثلاث. تحمل حقيبتها، ويقف قريبًا منها. تنظر إليه مليًا وهي تهم بالذهاب. تشعر أن ملامحه ليست إلا ملامح عابرة مجهولة. ملامح داخلها رغبة في استفزاز سؤالها، لكنها فضلت البقاء صامتة، يمشي الاثنان الواحد بجانب الآخر. يمران أمام جمع من الناس في أماكن متفرقة، لكن ناريز تمر دون أن تلتفت إلى ما يجري، ومحمد بجانبها يعود إلى الوراء قليلًا، يريد أن يحرك شعورها بالتفاتة تجعله قادرًا على المتابعة إلى جانبها. ناريز تمشي وحيدة إلى الأمام دون أن تنظر خلفها، يسرع نحوها ثم يتقدم مقدار خطوتين، ثم يدير رأسه نحوها ببطء ليلمح انطباعها، لكنه يجد ملامح صامدة، كأنها لا تنتظر أي رد من الحياة. ما يحركها فقط هو شيء رباني، ينظر إلى قطعتين سوداوين ترتديهما، وأكمام تصل إلى منتصف الذراع والساعات الثلاث...

ـ من الذي ترك الشمس تغادر الآن (قال محمد): ؟!

لكنها لا تجيب.... مربكٌ أن تضع فضولك محل إجابة في حين أن كل الأشياء تتضامن معها. حتى الطبيعة الصامتة وضجيج البشر الذي تضاءل حتى تحول إلى ركام أجساد بعيدة، والشمس ترفع أطراف ثوبها عن الأرض لتحضر حفلة رقص تقام في السماء كل ليلة، ولكن ناريز

تبقى جامدة، وكأن كل ما يدور حولها لا يمت إليها بصلة وليس شأن سؤالها!

ـ هل لكِ فم يحكي؟! (قال محمد):

على بعد خطوات هناك سلم على جدار خارجي مغطى بالإسمنت وفي الزاوية بعض قطع من القرميد حولها أكياس إسمنت وأدوات بعضها يغطيها الإسمنت الجاف المتساقط، ومجموعة أخرى من الأدوات الجديدة إلى جانب قطع كثيرة من القرميد المرصوف بجانب الجدار. تأتي سارة. تأخذ ناريز من يدها. تدخلان المنزل ومن الشباك تنظر سارة:

ـ لماذا يتبعك هذا الرجل؟!

تضع ناريز الكتاب على الطاولة ثم تجلس بهدوء وكأن ما يحدث لا يثير بداخلها الرغبة في الحديث أو الفضول.

ـ ماذا بعد الصمت واللامبالاة هذه؟!

(قالت سارة):

ـ لم يكن شيئًا!

ـ ما هذا الحديث؟!

ـ ما أدراكِ ما هذا؟!

تتقدم ناريز إلى النافذة على ضوء الغروب، بعد أن ترفض من سارة أن تضيء أنوار المكان.

محمد ينظر إليها كمن ينتظر المعجزة التي ستجعلها تقول شيئًا. يحاول أن يعانقها من جديد بنظراته. يبتعد ببطء، وناريز تنسحب إلى الخلف. تفتح أجندتها وتعنون نصًّا جديدًا «قميص وربطة عنق».

سَتَنَام الْأَمِيْرَة

وَتَعُوْد إلى حَيَاة الْحُلُم مِن جَدِيْد

أَنْزِع رُوْح الْضَّوْء مِنْهَا

فَك قَيْدَ الْعِشْق مِن يَدَيْهَا

سَتُسَيّر فَقَط حِيْن تَنَام

تَمَد يَدَيْهَا

آتِيَة مِن حُلُم

لَا تَقْرَأ فِي خُطُوَاتِهَا أَثَر رَجْعَة

المكان الصغير

كان المشهد ذاته يتكرر، وصوتها يعج بالصدى في تلك الغرفة. يدها المتدلية على طرف السرير وشعرها المنثور كبحر غاضب رمى بما تبقى من غضبه. كانت تتذكر كيف يمكن لهذا الرجل الغريب أن تكون له ملامحه الخاصة التي لا تشبه أحدًا؟. صار يحدثها عن ورود القمر الفضية التي توحي للسماء بحكايات تؤنس العشاق. صار لها الملاذ والمعجزة. صار لها مدنًا للبوح. كانت الكلمات تقودها إليه. هو وحده من جعلها تنظر في البشاعة، ولم تكن تطيق ذلك. جعلها تنتظر وتتجاوز خوفها. ترى الجانب الجميل من كل شيء قبيح يعبر حياتها، بعد أن كان الهرب خيارها الأول والأخير. لم يكن جميلًا، لكنها أحبته. كان الجمال أحد شروطها في اختيار من تحب، حين قالت له:

ـ أريد أن أحب شخصًا جميلًا. مللت اختيار الآخرين لي من حقي أن أختار مثلهم.

ـ وهل تكتفين بالشكل الخارجي أم بالروح؟

ـ الروح أولًا والجمال أولًا وأخيرًا.

ـ يا لكِ من مشاكسة!!

كان كل يوم يعبر أراضيها، تبحث عنه خلف أسوارها، كعاشق يبقى خلف الأسوار دائمًا في انتظار حبيبته. لكنه لم يكن هناك قط. كانت تتمتع بالحديث إليه، وكان يختطف كلماتها كمن يختطف ورودًا من الجنة. نحت لها تمثالًا... قال: إنه يشبهها. ضحكت ساخرة: كيف لهذه القطعة الصلبة أن تشبهني؟!.

ـ لم أحاول أن أرى في حياتك شيئًا واحدًا يشبهك حتى لو كان تمثالًا أدرك أني أحب النحت لكني لم أفعل..لا شيء يستحق أن يكون مشابهًا لك.

ـ لماذا؟!!.. أنا إنسانة بسيطة.

ـ وهل تعتقدين أن غاية هذه البساطة ليست شيئًا في غاية العظمة؟!!

تأملته عن قرب كيف يبدو شخصًا عاديًا، لكنه يؤجج بداخلها مشاعر ليست عادية، لم تستطع قط أن تتذكر عدد المرات التي انفجرت فيها بالبكاء على صدره. لا تعرف كيف استطاع شخص مثله أن يغير معاني كثيرة واعتقادات؟!!

استطاع فعلًا أن يغير روحها، أن يحولها إلى المسار الطبيعي، جعلها تتقبل وترفض تحب وتعترض تخطئ وتصيب.

تذكرت لمرات كثيرة كيف صفعته على وجهه؟ ورفضت كيفية اقتحامه حياتها وخصوصيتها بشكل فج، وهي التي تحيل علاقاتها مع الآخرين بناء على حاجز لا يمكن للملائكة والشياطين أن تتخطاه.

لم يطلب منها الحب كما تظن.

ـ فقط.. امنحيني فرصة واحدة لأني إنسان لست ملاكًا ولا شيطانًا! وأعدك تمامًا أن أختفي حين ترغبين. كوني أنت الساحرة التي تحيلني بضربة لامعة وتعيدني إلى اللاشيء.

لأول مرة منذ أن عرفته تنفجر باكية، ولا تراه وسادة لنبضها المتسارع. في مطلع النهار انتشرت رائحة النباتات. خرجت ولم تجد أثرًا يقود كلماتها إليه. صفقت أبواب المنزل بغضبها. حملت النباتات من أعلى الأرض لتضرب بها تربة الحديقة فتتكسر. تصرخ من أعماق قلبها:

ـ أين رحل؟؟

لم يسمعها أحد. ظل كل شيء ينحني لحزنها ؛حتى الشمس التي حملت قطيع أشعتها وفرت هاربة. عادت إلى غرفتها الضيقة. استلقت على السرير بدأت تفكر كما لو كانت تريد أن تسترجع الذكريات،لكنه أبى أن يعود. صار بكاؤها صوتًا موحشًا حتى الليل يخافه، وهي ترمي عقد اللؤلؤ الذي انفرط من حزنها. ترميه ولا تسمع من نافذتها صوت السقوط تمامًا... كما رحل حاملًا حزنه، ولا تستطيع أن تحس به. كان العقد من صنع يديه وضعه في عنق تمثال.

قال بأنه لن يشبهها أبدًا لكنها ستحتاج يومًا في غضبها أن تجد متنفسًا وستجده، يشبه سقوط تلك اللؤلؤة بعيدًا عنها، وبقية الأوراق التي تركها في رعايتها هو يقدس كثيرًا قداسة الذكريات.

ـ اسمي علي. أحب النحت في التماثيل. أنحت فقط الوجوه البشعة وحين أجد شيئًا جميلًا مثلك سأنحت لك ملامح هلامية.. لا شيء يشبهك!!

بكت كثيرًا وهي تقرأ كلماته..

ربما يؤلمك الحزن يومًا لكن تذكري أن للحزن وجهًا جميلًا، ابحثي عنه في قمة حزنك..

بدأت تحس أنها مدينة خاوية يقض مضجعها وحيف الوحشة. الليل طويل في كل مسامة من مسامات الهواء. تفتح نوافذها لليل أن أخرج من بيتي. ذبل جسدها وذوى وجهها في المرايا والزجاج.

أريد أن أخرج مني إليه كما يخرج الليل من نوافذي للنهار...

قرأت في ملامحِ من حولها أن لا أحد يعرف وجهته. سؤالها عنه كان مُسَكِّنًا يخفف أرض الجحيم التي تطؤها كلما أحست بالفقد والوحشة. يعطيها البعض قليلًا من حضوره في ذاكرتهم من شفقة عليها، فتدير وجهها عنهم، وهم يواصلون بإلحاح أنه ربما لا يعود، وربما يعود وأن الحياة تصعب في الممكن.

سقط حجاب شعرها عن رأسها، وعضت على شفتيه من جمرة بين أضلعها لا تخبو. أحبته أم اعتادت وجوده حين تريده فقط؟!

هكذا توشوش نفسها، حتى رأت ملمح البركة الآسنة التي كانت ترمي أحجارًا فلا تحرك ركودها إلا للحظات. ظنت أنها تشبهها تمامًا. تشبه داخلها وتفاصيلها وملامحها تشبه خيالها وحياتها. تشبهها من الداخل والخارج. حين أجلسها إلى جانبه.

ـ هل تعرفين ذاك الرجل الذي يدعى عليًا. هو يحمل اسمي نفسه لكنه يعشق كل نساء الأرض وكل ما يدخل في قائمة الأنثويات.

تتذكر كيف ضحكت من سخرية تلج أعماقها؟ وقالت له:

ـ ونعم الصديق هل تعرف أن أنثى الأخطبوط تقيم علاقة معه؟

ـ يا إلهي.. خجلت من كونه صديقي!!

ضحكا حتى ذبلت ضحكتها في أحضانه. صارت ساكنة متأملة مثل نجمة في السماء تومض بخجل ولا تسقط في عيوننا.

أمسك بها ذاك العلي الشقي عاشق كل نساء الأرض. شبيهه في الاسم فقط أمسك بذراعها نظرت إليه... سألها إن كانت تريد شيئًا.. قالت له:

ـ أنا..

تسمرت الكلمات فوق شفتيها وهو ينظر إليها ثم نظرت إلى يده المحكمة القبض على ذراعها. أبعدتها... جلس فأجلسها إلى جانبه. أشعل سيجارته، وبدأ يقص عليها ما تريد أن تعرفه عن صديقه علي. يعشق الجمال والحب. ظلَّ يفشي كل شيء حتى يزهر. لم أستطع أن أكون مثله بالرغم من أنني عشقت كل أنثى على هذه الأرض... حتى نساء الجاهلية. أخافتها الحقيقة أن كانت أزهرت وأودعها الجنة، ورحل. تركت صديقه، ودخان سيجارته الكثيف، وعادت تجر خطواتها بلا أثر حتى من ذاك الغبي المدعو صديقه.

لن تعود إليها الحياة ما لم يعد. بحسرة صارت تشم رائحة الأزهار تبحث عن معجزة تتحقق.. ربما تكون طريقًا إلى عودته.

ضاقت ذرعًا وهي تتأمل ملامح التمثال الذي قال إنه يحمل ملامح روحها. لكنه لا يصل إلى جمالها بحثت في أسفله عن عنوان يقودها إليه... حتى وجدت كلمات تشبه الطلاسم تشير إلى مكان ما أخذت تفكك رموزها كمن يقرأ لأول مرة في حياته، لغة صعبة، يخفق في نطق أحرفها بشكل صحيح كل من قرأها. أعادت ما تراه مرارًا حتى وجدت مكانًا لمتحف يحمل عنوان الحياة الأبدية ذهبت تسأل إن كان أحد يعرف مكانه؟

وهي تسأل نفسها... أين يكون سؤالها حين أخبرها

إنه يحب النحت؟ أدركت أن الإنسان لا يوجد إلا حيثما يوجد ما يحب. كان عليها أن تفكر في ذلك قبل أن تسأل صديقه عاشق النساء الذي يحمل اسمه نفسه!!

وهو الذي يختلف عنه كما تختلف الجنة عن جهنم. هناك أشار إليها أحدهم في ذلك الاتجاه. سارت حتى وجدت متحفًا قديمًا جدًا يحمل لافتة صغيرة جدًا لا تكاد ترى تحمل الطلاسم ذاتها التي وجدتها أسفل التمثال. أسرعت نحو الباب الخشبي القديم، فتحته. كان المكان شبه مظلم. نور ضئيل دخل معها حين فتحت الباب. لم تجد أحدًا استدارت تبحث عنه لكنها لم تجد أحدًا. فتحت النافذة الخشبية دخل النور بشكل مستطيل. انتظرت بجانبها وبدأت تتطاير أشياء صغيرة أطلقت عليها ذات يوم كائنات من نور. لم تلعب معها كما كانت تفعل سابقًا. كانت إلى هنا في المتحف الصغير، وتعيد البحث عنه لعل هناك أثرًا لوجوده. حتى كبر سؤالها عن سر اختفائه. وصار سؤال المدينة... وحده التمثال الذي أهداه إليها يعرف السر، تسكنه روح صامتة هي روح عاشق تحيط بها كلما ظل بقاؤه في المكان الصغير.

فَتَنْفُخ فِي صُوْرَة الْحُلُم

أَن لَا تُحَرِقَهَا ثَانِيَة يَقَظَة.

رُوْحُهَا قَدَاسة الْسَّمَاء

أَيُّهَا الْعَاشِق

لَا تَقْصُص رُؤْيَاك

الْحُلُم لَا يَنْهَض مِن نَوْمِه

هَذَا خَيَال الْكَلَام

حين لمحتك من بعيد

جدائلها الشقراء الملفوفة حول رأسها، وأذناها الصغيرتان اللتان تحملان أقراط الزهر الملون التي تحملها بثقل وكأنما ستسقط الخصلتان الشقراوان اللتان تتهاطلان على وجهها الأبيض المستدير. فستانها الأبيض القصير، وساقاها النحيلتان وهي تقفز بالماء والقطرات التي تتراشق من صخبها الطفولي اللذيذ. في عنقها قلادة تأخذ شكل العين، وبعض العبارات المقدسة تسير بعيدًا وهي تردد أغنية..

I'm so lonely, broken angel
I'm so lonely, listen to my heart
One n'only, broken angel
Come n'save, before I fall apart

جلس بعيدًا يتأملها باهتمام والريح تبدد وجه الصباح بعد أن اغتسل بالندى..كل هذا الفرح العذري الذي بدا أمامه اختفى سريعًا... أحس بضيق شديد ينتابه، وهو الذي

كان كالطير الأبيض الحر يحلق في كل السماوات دون أن يشعر بحدود. ملامحه التي اختصرت معاني النفور صارت خاصة به... سوى تلك الفتاة التي تركت في أذنيه أغنيتها واختفت. تتعرى عند الخامسة والنصف حتى السابعة عند أشعة الشمس الباردة ثم تدندن أغنياتها الأجنبية وتعود إلى غرفتها... زجاجها يستتر بالبياض الذي لا يعكس إلا صورته وهو يتأملها من الخارج، لكنها لا تخرج. هناك اختار شاطئ المدينة الغارقة في سكون لذيذ. يستلقي على الكرسي وينظر إلى الشاطئ... إلى العابرين... إلى تلك الملامح التي تبدو من شرق آسيا. تصفع رجلًا معها، وهي مرتدية تنورة قصيرة تكشف عن ساقيها، وجاكيت ذات خطوط حمراء ممتزجة بالبياض تشير إلى نوع عملها في مكان حكومي أو ما شابه، والرجل الذي برفقتها ذو الملابس التي تنبئ أنه لا يتفق معها في أي شيء حتى في طبيعة الحياة، واختياراتها. منذ أن صفعته حتى جلست إلى جانبه حول الطاولة، وخرجت باكية بشكل سريع إلى الخارج. مجهولة بعد ذلك تفاصيل الحكاية قد يكون تبعها؟ قد يكون انتقل بسيارة أخرى؟ قد يكون صفعها؟ قد يكون........ لا أعرف...

يستغرق النظر بعيدًا صوب شراع هارب لقارب تتلاعب به أمواج البحر. رفع رأسه نحو السماء، ما زال الطير الأبيض محلقًا في السماء بجانبه الكثير من الطيور تمنيت لو كنت قد أحضرت الكاميرا لأصور كل هذه اللوحات.

حمل بعضه وعاد باتجاه غرفته بالفندق. عند البوابة الخاصة بالشاطئ كانت هناك من تركت ابتسامة تبدو أكثر اتساعًا وأشدَّ حنوًا، وهي تقول له: تفضل... لقد أتيت لك مسرعة حين لمحتك تقترب من زجاجي ذي الستائر البيضاء الشفافة. نظر إليها وهي تتحدث بلهجة سعودية... أصابه الذهول حين أدرك أن هذه الشقراء سعودية.

ترتدي شورت أبيض وقطعة فيروزية تكشف عن بطنها الصغير. على كتفها اليمنى من الخلف وشم أسود كبير لامرأة لها شعر كثيف نافر في كل الاتجاهات. بادرتها بدهشتي:

ـ سعودية!!

نظرت إليه نظرة تنطبق معها شفتاها نحو اليسار!

ـ وفخورة بذلك...

ـ يا إلهي...

ضحك كمن وجد شيئًا قد فقده... ضرب يده اليسرى برأسه.

ـ أما أنا فعلمت حين رأيتك لأول مرة أنك سعودي...

ـ كيف عرفتِ ذلك؟

ـ لأنك تجلس وحيدًا...

ـ ربما.. أركن إلى الوحدة كثيرًا... أعشق العزلة... أنا عبد الله. أدرس في أمريكا منذ ثمانية أعوام، ولم أصبح دكتورًا بعد. تخصصي علوم سياسية. الدولة الوحيدة التي أعبرها بعد المملكة هي هذه الدولة.

ـ أنا «ديم» وهوايتي أن أكتسب اللغات الأجنبية. أجيد اللغتين الإنجليزية، والفرنسية، وأمضي ما يقارب سبعة أشهر في تعلم (Espanol)

ـ الأسبانية!!

ـ Si

ـ تقصدين نعم.. ربما أفهمك لكن لا أستطيع الرد عليك!!

ـ هذه هي حال كل المنتمين إلى بلدنا. يفهمون كل شيء؛ لكن لا أحد يملك الرد عليك...

نظر إليها متأملًا... كانت زهرة أطلقت ـ بشعرها الأشقر المتطاير بخفة ملائكة ـ نورًا يخبئ خلفه الشمس بحجمها المعتاد. بدا ذلك حتى أخفت عينيها بنظارتها

البيضاء، تلك التي كانت ترفع شعرها إلى الأعلى، ثم منحتني حقيبتها الملونة أحملها على كتفي حتى توجهنا إلى الشاطئ. هناك بدَت الأشجار وكأنها جداتنا يطلقن جدائلهن لشمس الظهيرة. بعد أول سؤال عن روتينها اليومي، مدت لي شاشة صغيرة إلكترونية تحوي كل روحها الموزعة في كل مكان. البحر بدأ ينطلق نحونا حتى صار يلامس أصابع قدمينا الحافية. أمسكت بيدها. أخذتها إلى البحر تبللنا ثم أشارت إلي بيدها:

ـ هناك أشياء جميلة بالعمق لها صوت الموسيقا. لا تحاول أن تسمعها هي التي ستمنحك صوتها.

غرقنا في الماء حتى العمق. بتنا لا نرى السماء سوى سقف آخر يعلو سقف الماء الذي جعلني أمسك بيدها لأول مرة، ثم نصعد لنأخذ أوكسجين من البقعة اللامرئية ونعود غارقين في البحر. نتأمل الصخور المقدسة، والكائنات التي تسير نحونا، وتتخلل سيقاننا تهمهم لي بشفتيها المقبوضتين على الهواء ثم تعلو وتنخفض. اقتربت، فشممت من عنقها عطرًا يكاد يفوق عطور البحر، وكأنما حفظت رائحتها عن ظهر قلب.

ظل النهار تحت الماء يتضاءل. خرجنا مبللين حتى أرواحنا ابتلت. توقفت هي أسفل الماء تغتسل، وضعت على ظهرها ذاك الروب الوردي الذي أخرجته لها من

حقيبتها الملونة. بينما أنا اغتسلت بعدها، وأغلقت الماء من مقبضه الفضي، وذهبنا سريعًا... ذهبَتْ إلى غرفتها. ودعتني واختفت من خلف الزجاج بعد أن أسدلت ستائرها البيضاء، وأنا أرى نفسي مبتلًا، وأتصبب ماء.

ذهبت إلى غرفتي كنت أفكر تمامًا فيها. أخشى أن تنتهي الأيام. أخشى أن أعود أو أفيق على ذهابها. أصبح الشاطئ خاليًا كانت هناك منطقة لشرب القهوة أو الشاي في هذه المنطقة يمنع بتاتًا التحدث بصوت مرتفع أو التدخين أو التحدث بالهاتف المحمول. منطقة تنزل لها من أعلى إلى أسفل، منطقة تختص بالتأمل فقط. تكشف جزءًا مرئيًا من البحر. من بين المنارات المضيئة في البحر والمنطقة التي توضح المنع بتاتًا تجاوزها ولو سباحة. انتظرتها كما كانت تريد في هذا المكان، اتفقنا على هذا قبل أن تذهب. أتت من خلف الوجوه الساكنة فلا أحد يحتمل أن يجلس في هذا المكان الجميل؛ لأن الجميع يفضلون الحديث في أماكن مفتوحة لا الصمت والتأمل. لكني أردت أن أعرف طقوسها الفاتنة. أضمرت في نفسها سبب اختيارها لهذا المكان لكني أظن أنها تريد أن أصمت. تريد أن تتأملني أكثر من سماع أسئلتي... عن مكانها... ومنشئها... وحياتها وربما تفاصيل تعتبرها الأنثى على وجه التحديد فظاظة واقتحامًا، وربما تكره التسلل إلى خصوصياتها. بدأت أشعر أن هناك رائحة آتية تنبئ عنها... تشبه تلك الرائحة التي

شممتها، وربما أحسستها من عنقها في عمق البحر. كيف يحمل لي البحر عطرها بين يديه؟ تركت ابتسامة خجولة فطرت إليها وكأنما شهقت روحي شهقةَ الانتظار، وقفت وتوجهت نحوها.. أبعدت لها الكرسي لتجلس أمامي. كان كل شيء يومض بيننا بفرح. مدت يدها لي ولم تبعدها قط. فستانها الأحمر، وحزام أسود يكشف مقاس خصرها النحيل، وربطةٌ حمراء تلتف حول شعرها وتتدلى قليلًا على كتفيها. كعبها الأسود، وحقيبتها السوداء، طلاء أظفارها الأحمر بين يدي يلتمع كقطع كريستال. رائحة عطر تتفشى. قدمت النادلة لتضع الأسبريسو بدأنا نتأمل ملامحنا ثم الوجوه الصامتة حولنا ثم البحر الذي نراه من أعماقه والكائنات وسرب الأسماك الذي يثار بين وقت وآخر والشمعة التي تومض قليلًا بيننا. لم يعد يثيره إلا متابعة ملامحها في هذه المنطقة التي تكشف جزءًا من البحر، وإحساسه الذي يلمسه الآن من يدها الناعمة حتى هدوء تلك الكائنات التي تتحرك بخفة عجيبة، وابتسامتها البريئة التي تكتنف هدوء الحياة البحرية حولنا والأشكال الهندسية التي تتخذها الأسماك زَهْوًا ولعبًا حولنا. تأخذ أعيننا ناحية التموجات تلك. تذوقت الاسبريسو، وهي تقرأ ألف سؤال تشتت إجابتها في عينيها حتى لا يلتقط منها المعنى، ثم أمسك بيدها، وخرجا بعد أن دفع ثمن القهوة، توقيع متضمن عبارة «أحيانًا يكون الصمت اختناقًا ورغبة في الهرب».

ضحكا حالما خرجا، وكأنهما خرجا من البحر المالح ذاته الذي أمضيا النهار كله سباحة فيه. أشارت إليه بساعتها للوقت أنها ستخرج... ذهبت مسرعة إلى موعدها. بينما ظل فاغرًا فاه مندهشًا؟!..

أمضى الليل وحيدًا في السينما، وبعدها متنقلًا يصنع لها بعض الأساور، ثم عاد بعد أن تناول وجبة العشاء. يسير متخاذلًا. قد لا يراها مجددًا. ربما لا يمنحه القدر اللقاء الآخر بها حتى توقف عند الواجهة الزجاجية لغرفتها وستائرها البيضاء لا يشع من داخلها النور، وحين أراد أن يسير رأى نورًا يلتمع. نظر إلى الزجاجة واقترب. أزاحت الستائر البيضاء ونظرت إليه مبتسمة أشار إليها بالخروج برأسه، وهو فرح، وكأنما نزلت عليه مائدة من السماء. خرجت له احتضنها بسعادة، ثم سار معها نحو البحر. أمسك بها وحملها وأجلسها على الحائط القصير المؤدي إلى الواجهة البحرية نظر إليها في ارتباك.

بدت كما لو كانت دمية تقف أمامه. أزاحت أساورها الجلدية تلك التي تدون عليها عبارات إسبانية.

Gracias (شكرًا) أزاحتها من يدها ووضعتها في يده، وبالكاد استطاعت أن تغلقها، ثم خلعت خواتمها ووضعتها في إصبع يده الصغيرة نظر إليها وقال:

انظري هذه الأساور الأربعة، تعبر عن جملة واحدة أعجبت بها، وأخذتها لك؛ لتبقى ذكرى فيما بيننا.

(أحبيني كما لو كنت الحياة)

مكتوبة بكل اللغات التي تتقنينها العربية الإنجليزية الفرنسية والإسبانية

Love me..
comme

لو كنت

vida

ضحكت وأجابته نعم وهو يقرأها متنقلًا بين اللغات مؤكدة وهازئة. احتضنها بشدة. تركته وذهبت إلى النوم بعد أن لبست أساوره الأربعة. أشارت إليه من بعيد بقبلة ثم أسدلت ستائرها البيضاء.

عَرْش اللَّيْل

مِن خَوْفِي يَصِيْر قِنْدِيْلا

يُشْعِل عَيْنِي

وَعِطْر يَنْهَار عَلَى جِلْدِي

سُؤَالا

لِمَاذَا أَخَاف أَن لَم أَعْشَقْك

شُرْفَتي سَمَاء مَن زُجَاج

أَو غَيْمَة هَارِبَة مِن وَجْه الْرِّيح

تُطْلِق عَصَافِيْرَهَا

وَتَخْلَع قَمِيْص الْقُطْن عَن جَسَدِي

عَارِيَة بِدَمِي وَمَكْتُوْبَة لِلْحُزْن

أَسْلَم وَجْهِي لِمِرْآة عَيْنَيْك

امرأة عارية

الملابس التي تظهر على الشرفات جعلتني أستدل على لحظة تأمل حولي أن أدرك حجم الوقت الذي أخوضه في تعميم الأشياء داخل حلمي. ركبتي التي تظهر على الكرسي تبحث عن أشعة الشمس؛ لتخترقها. ملابسي البيضاء الفضفاضة، ودهشتي العارمة، وأنا أكتشف بداخلي صوتًا آخر لم آلفه بعد. أشعر بأن روحي تفيض مني. ليس في لحظات الحلم وحسب، وإنما حتى في تلك اللحظات الشاردة؛ تجعلني أحلق بها إلى أطراف السماء فأشعر وقتها ـ وأنا مسحوبة الذهن فارغة الروح ـ أنني أهب نفسي للضفة الأخرى من الكون. فراشة بيضاء تطير نحوي لا تأكل من خبز شرودي أبدًا حتى تسقط روحي من عليائها، وتلتصق بي فأدرك حجم الدقة المتناهية في تفاصيلها، وكأنما أريد أن أتأمل أصغر الأشياء، وأنا التي تركت روحي تطير في الفضاء حتى أمسك بأطراف الشرفة؛ لأشاهد فستاني الأرجواني، وقد صار علمًا به أستدل أنا والآخرون على مكاني هذا. حتى أصبح الكل يهزأ بي. إن روحًا ما ترتديه

حين مساء، ثم تظهر عارية في الصباح الباكر لا يراها أحد، فتترك علامات لجسد ضخم، قد خلع لباس القطن هذا، ولكنه أودع أثره وتفاصيله الأنثوية حتى تصبح ابتسامة هزيلة على وجهي. رد لا يستسيغه البعض فيغادرني. ما زلت لا أدرك كيف سيكون شكل السماء بلا عيني؟ كيف ستكون لها تفاصيل أخرى غريبة ومستبعدة لها طقوسها التي لا نراها أبدًا؟. وحدها الروح التي تحتمي بها عند الحلم، أو حين النعاس. حتى الحمامات التي اختارت لها مكانًا على تلك الشجرة الضخمة. طارت إلى وجهة أخرى، ونسيت ذلك الفستان علامة. لم أكن أقرأ في تفاصيله كما كنت أفعل حين شروده إلا بعد أن أمسكت تلك الطفلة بالونًا. حاولت أن تقتطفه، ولكنه علق بين أطراف الباب. نزلت مسرعة لأمسك بخيط البالون حتى نزل نحوي هو أيضًا. لنكرر الفعلة ذاتها. أنفه الطويل صار ملاصقًا لوجهي والبالون الذي صار خيطه بيدي. جعل من روحي ترتفع أسفل عينيه أعلى من قلبه. وجدته يبتسم لي:

- هي بيدك الآن

وأنا أرغب في أن أرنو إلى شرفتي. ربما أمنح تلك الروح لحظة يقظة، وأن أمنحها لحظة تأمل أخرى. تنادي بها فستانها العالق على وجه شجرة. مددت يدي إلى الطفلة منحتها بالونها، وتركت لروحي انفجاراتها. حين شدت يدي بقوة لتريني قوسًا كما سهم على السماء التي تركت مطرًا خفيفًا وجلبت يده الأخرى. كان يتأملني وأنا أنظر إلى السماء، والطفلة تنظر إلينا مبتسمة، ثم تنظر إلى السماء

فرحة. خرجت قطة لا أعرف كم من الصرخات المتوالية التي جعلتني هذه القطة أجيش بها، بل إنها اقتلعت ثوب وقاري أمامه، فيبعدها عني ضاحكًا:

ـ لماذا لا تحبين القطط؟

ـ لا أعرف هو شعور طفولي نما معي.

تنظر إلينا الطفلة مبتسمة:

ـ أنا أحب القطط!!

يبتسم ثم يقول لي:

ـ من منكما الطفلة أخبراني حالًا.

ابتسمت ثم تلبسني الصمت. غادرتنا الطفلة فور أن وصل أحدهم مناديًا إياها. مد يده مصافحًا لي وقال:

ـ هل نسير في الشارع هناك حديقة فارغة من كل شيء!

ـ نعم...

مشينا متقاربين. نظر إلي وقال:

ـ أحب أن أسير إلى جانب فتيات لديهن ملامح كما أنتِ تمامًا ملامح تخصك حين أراك لا أبحث في تفاصيلها عمَّن تشبهك!

رفعت نظراتي إليه، وكأنما أؤكد كلامه، أو أوحي له بمعنى القبول والرضا. بالأحرى اقترب هو من حمامة لا تستطيع أن تطير. يبدو لي أن جناحها مكسور. أمسك بها

ووضعها على ركبته بعد أن جلس وأجلسني إلى جانبه. بدأت أنظر إلى الحمامة. اقتربت من الحمامة نظرت إليها بعمق حتى التصق وجهي بها حين ابتعدت عنها. نظر هو الآخر إليّ.

لم أستمع إلى كل ما كان يقوله لي عن حياته. يتحدث البعض عن حياتهم وكأنها حياة مغمورة بالأسى. ليس كذكرى عبرت وانتهت ولن تعود مثلي. أنا كانت لي طريقتي في التخلص من الالتزامات القدرية التي لم أحبها يومًا، وعاكستني رغبتي أن أنظر إلى كل يوم يمر خلالها أنه يوم وانتهى، وبدأت تتناقص حتى خرجنا من روحينا وسكنت الحمامة بعيدًا.

قلت له:

ـ وجودنا كأشخاص طبيعيين، ثم انسلاخنا من أرواحنا، وتحولنا إلى كائنات مشدوهة معظم الأوقات بسبب الحالة غير الطبيعية التي تصيب البشرية. ربما الحالة النزاعية التي تشتعل داخلنا تقودنا إلى طرد أرواحنا بعض الوقت.

ـ هذه الطبيعة البشرية هي ترادف لمجموعة هائلة من المتغيرات الروحية التي تبقى على نزاع وتحدث هذه الفوضى.

ـ لذا نحن اختلقنا الرحلة والسفر. اختلقنا كل الأشياء التي تمكننا من الابتعاد. من أجل أن نسيطر على الطبيعة الإنسانية المزعومة، فتلك هي الكلمات التي نمارس من خلالها خداعنا باسم الرحيل بشكل مؤقت. حتى السفر

يحمل معنى الفراق، الموت في الحياة. لكن البعض يعتقد أنه أسلوب لتجديد الحياة.

ـ ياااااااه كيف أصبحنا نرى الحياة بشكل مختلف عن السابق؟ بالرغم من الاعتقادات الراسخة والموروثة.

أمواج الهواء تعبث بشكل الكلمات، وشعرها المتطاير. هما يستلقيان على العشب الذي يأخذ لون الاصفرار في أطرافه. قال لها:

ـ انظري إلى شعرك المتطاير. بدأت مروحة الكون تعبث بنا من جديد!!

ابتسمت لخياله الذي صير الرياح مراوح، فتحت عيني باتساع كبير. بدأت أنظر إلى كل الأشياء حولي، وهو يمسك بيدي يأخذ إصبعي الصغرى في إصبعه، كما يفعل المتعاهدون.

ـ نفعل الكثير؛ لنترك روحينا. نفعل الكثير؛ لنترك جسدينا. إننا نحن بين هنا وهناك!

بدأنا ننظر إلى السماء نشرنا روحينا على حبل الكلام. حاولت أن أقنعه أن الحيوانات أيضًا ربما تشاركنا في الفعل ذاته، حتى الطيور والحشرات. كل الكون يشترك في عبثية الروح التي تمنحنا النظر إلى الأشياء بمنظار مختلف.. قال لها متسائلًا:

ـ إذا لم يكن الأمر مجرد تهيؤ فهل هو حقيقة؟!

ـ بل هي اشتراكات الحقيقة والخيال في آن واحد. إنها لعبة الطفولة التي تكبر معنا.

ـ لذا كنا نثير فوضانا، بالركض، بالتسكع، باللعب..

ـ نعم.. كلما منحنا ذواتنا قيمة حقيقية ومطلقة آمنا بانشقاقات الروح وفراغ الجسد. تخلصنا من الإيمان التام بكيمياء الجسد المجرد..

ـ إذن كان الطرد الروحاني داخل الجسد هو الحل في ظل قدسية الإيمان. محاربة الجسد هي إماتة الروح مرات ومرات، وخلقها من جديد حتى تصير الروح قادرة على التخلي التام عن الجسد فيموت.

ـ الموت طبيعة بشرية كما الخيال، لكن الحياة وفق نظام إنساني هو من فرض عليها تلك المعاني.

ـ إذن هو اعتداء على الروح. هو نفاق شخصي ضد الذات. هو محاولة لتهريبها، ووضعها تحت سقف الكون كمحاولة للاعتدال.

ـ إنه السبيل الوحيد كلما اصطدمت بالرغبة الطبيعية.

استبدلت مكانه، واسترخت وهو ممسك بيدها حتى تجلى الخدر في روحها وجسدها، وهو صار بديلًا لها. يمنحها شيئًا من التكامل مثل التصاق الروح بالجسد، وحلول الحياة بينهما أو لهما معًا.

ـ هل هذه سياستك لتمنحني النظر إلى الأشياء؟ كما كنت تقولها...

- بل هي المصلحة التي تقودك لفهم ذاتي تجاه ما يقره عقلك وقلبك بين جسدك وروحك.

صيرنا المكان فراشات تسترخي على الحقول الصفراء التي تضمر داخلها اخضرار الربيع المغادر. وأضحى كلامنا المختلف تطابقًا تامًا؛ هو تطابق شديد الوضوح مع ما يجري مع أرواحنا. هناك تحت السماء وفوق الأرض نوع من التورط في الصراع الداخلي؛ من أجل السيطرة على الجسد أو الروح أو قراءة تلك الانعكاسات الطردية بينهما؛ إذا استطعنا تجميد الفوضى لحالتها الطبيعية.

هي لم تكن وقتها مقارنات بين شيئين أو ضدين. تلك التي نرويها، بل هي نظرة متقاطعة لما يحدث خلخلة في النظام الحياتي المضطرب حولهما. حين تبوح النفس فهي تولد طريقة جديدة لقراءة الحياة. تنشئ علاقة متبادلة على غرار العلاقة بين اثنين لهما تضادات متقابلة. إذا تحولت الروح إلى نمط والجسد إلى آخر هذا التضاد المستمر على التوالي يولد للخيال الاكتفاء الذاتي، مما يرسخ القبول. حتى تتداعى بينهما الكثير من المتضادات التي تتجلى في الحياة، فتوافق الاكتفاء ذاته، وتتواصل إلى مالا نهاية؛ لذا صار لزامًا أن يكون هناك محاولة للتخلص من الروح أو الجسد. هذا التخلص الجزئي أو الكلي يفرز التنوع والتواصل. حتى التزامن بين كل مختلف. حتى لو كان ذلك الاختلاف أشد اختلاف يطرح بينهما.

استلقى أعلى جسدها بينما هي أسفله تمامًا. نظر إلى عينيها المتسعتين اللتين لم تخيفاه وقال لها:

- إن ذلك يثير السحر داخل روحي، وجسدي، وعيناك اللتان تطلقينهما للمدى لا تحدان حدودًا لقربي منك. أريد أن أسيطر على أشيائك البعيدة. أريد أن أسير في زمنك لأطول مدى دون معارضة. عليّ بعض القبول فيما يكون بيني وبينك هذا هو منطق الإعجاب من الرجل. مهما كان يظل في بحث دائم عن احتياجات لا مدى لها، وبالتالي يريد أن يحقق إشباعها. حتى لو لم يحقق ذلك على أي مستوى....

- بمعنى مباشر كهذا!!

- بل بالدقة المختصرة. أريد كل أشكال الوصول إلى قلبك أو عقلك أو جسدك. أريد أن أجعل منك نسخة محنطة في خيالي الذكوري، وبلا شك أريد حياة عاطفية غير منضبطة. تثيرها الفوضى تعزز حضورها بيننا.

- تلك رغبات مفتعلة، وليست عاطفية.

- بل أشياء لا تحتمل لسماتها المميزة، وطبيعتها. هي حقيقة محجوبة عن البرجوازيات أمثالك اللواتي يعشن ليسيطرن وفق قيم متأصلة ولدت معهن. دون أن تدرك سر احتفاظها وإيلائها كل هذا الاهتمام والحرص والشدة.

- بل أنا متبصرة مدركة. لا يمكن أن تأخذ مني وعدًا للوصول إلى داخلي كما روحي إلا إذا كنت تحترم هذه الروح. إنني أمنح روحي لمن أحترمه فقط، ولا أرى جسدي كمجموعة أعضاء لها رغبات. النزعة الإنسانية المحرضة أرفضها جملة وتفصيلًا. جسدًا وروحًا لا أبحث عن أي شيء

لأنتصر لشيء. حين صافحت يدي لم أرك رجلًا شهوانيًا تقودك الرغبة. كنت أراك رفيقًا للروح والجسد. في تفاصيلك قرأت ما تختلف داخله عني. فهمت إشارات البالون القدرية وعيني الطفلة ويدها التي أخذتنا إلى قوس خارج المكان. أدركتها جميعًا، وكان عليَّ أن أفهم أن الطبيعة تتضامن معي؛ لكي أقترب منك أكثر، كما أنت الآن تمامًا تتسلق جسدي. تبحث عمَّا يطفئ المشاعر الملتهبة.

كان أبسط مثال لفهم تلك العلاقة: هو إدراك العلاقة الأساسية بين الجسد والروح. فهم الثقافة بين رغبات الرجل وجسده، وجسد المرأة وشكل رغباتها وميولها الفطرية بعيدًا عن ممارسة القمع، وطرد الرغبات خارج الجسد. حين تعبث الطبيعة الجسدية وتقيم نَصْبَ فوضاها داخل الروح فتنشطر بمدافع ومهاجم، بل الوصول إلى لحظة التسامي بينهما صارت السماء سوداء تمامًا والأعشاب اكتست لون الظلام. هو يعيد ترتيب الرفض داخلها، وهي تلغي طعناته على ذاتها البرجوازية، وادعاءاته في كونها. ترى أن الأنوثة صفحة بيضاء يجب أن لا تلطخ بالآخر، وألَّا تصنع نموذجًا إنسانيًا إلا بقيود إنسانية لتكون صفحة مقبولة. بات يبحث عن يدها ليستدل مكانها، وهي تحاول أن تنظر إلى السماء ذاتها التي صارت فرشًا من النجوم، حتى رحلت وهو مستلقٍ على العشب. يشعر أن إهمال وجوده هو إهمال لداخلها الذي أطلقته بعيدًا، وما زاد حالتها تعقيدًا أنها وصلت إلى الشرفة؛ لترى الفستان تخلعه امرأة عارية، وتذهب باتجاه الحديقة.

الأموات رسائل الله في أرضه

غلبت الروح

تختار الشمس زاويتها الخاصة حين تأوي إلى عروش الحب، فتهب شيئًا من غضبها الظلامي للأرض. تنتشل بقايا الشاي المسكوب على يديها، ثم تفر كما لو أن عصافير خفية تحملها على السلم، لتصل إلى غرفتها. ارتدت عباءتها، ثم تعطرت. سكبت قارورة العطر بأكملها!، وكأنما تريد أن تترك أثرًا لمكانها. تتأمل ملامحها الشاحبة... رجفة يديها...تحمل النباتات الخضراء بيديها. تسير في الظلام غير مبالية بالسكارى. تقترب من المكان، وهي شبه لاهثة. تتلفت حولها في كل الاتجاهات. تنظر إلى الأشجار الضخمة، وإلى السور العظيم. تلمسه بيديها. تحاول أن تصعد حتى تراه يمسك بكتفها. تسقط عباءتها عن كتفيها على ذراعيها. ينظر إليها بعينين لامعتين كأنما تخبئان داخلهما كنزًا من الترقب. صار صوتها مخنوقًا من خوفها. لا يخرج منه سوى الهمس الثقيل، وكأنما غلبت الروح. تسأل نفسها:

لماذا تتباهى أنها أذكى من الآخرين وها هي وقعت؟!

تحاول أن تنظر حولها لعل مكانًا آخر يمكنها الهرب منه، فلا يستطيع الإمساك بها، لكنه لا مفر. يحيطها بذراعيه، وكأنما قد وجدها. يهطل المطر فتفوح رائحة عطرها المسكوب. ليس خلفها إلا بشر نائمون إلى الأبد.

عيناها معبأتان بالدمع تنتظر أن تنفجرا حين يهطل المطر. صارت رائحتها تتفشى بقوة أكبر. تنادي بقلبها:

هل للأجساد الميتة خلفي أرواح تنقذني من بين يديه. مكبلة به. هل هناك من يحس بي أو يسمعني؟ هل من معجزة تتحقق؟!!

يتلعثم لسانها، وهي تفكر في هذا الرجل الذي أمسك بها من يكون؟

أيكون حارس المقبرة أو رجلًا يبحث عن فريسة فاستدل بعطرها؟

ضيعت هذه الليلة مفاتيح الخلود، ونجمة غاضبة في السماء تلمحها تنشر وميضها في كل مكان. تبللت نباتاتها من المطر الغزير وهو لا يزيح ذراعيه عنها، ثم قال لها بصوت غليظ:

ـ من أنت؟

ـ لا اسم لي.

ـ هل أنتِ مصابة بالجنون؟

ـ أنا مصابة بالحزن اتركني وشأني!!

ـ لماذا أتيتِ؟

ـ لموتى.

ـ لمن؟!!

ـ حكاية لا تستطيع أن تدركها أنت!!

ـ هل أنتِ روح هاربة؟

ـ أنا جسد ضال.

نظر إلى البراءة التي تشع من عينيها ومن لمعة دموع محتبسة. أفلتها من ذراعيه ورحل. عادت؛ لتصعد السور وهي ترقب أرضًا واسعة مغمورة بالأحجار الصغيرة.

رأت تلك العلامة حوله. أزاحت الأحجار، وبقايا النباتات الجافة عن مرقده، ثم استوت في جلستها. المطر الغزير ينسكب، فتضع تلك النباتات على قبره، وهي تبكي. أزاحت لثامها عن وجهها. سمعت حديث الموتى، ونور يشع بين القبور. ينطفئ هنا ليومض هناك. رفعت كفيها إلى السماء؛ فاستجابت الغيوم مطرًا غزيرًا. توسدت حجرًا بجانب قبره. غطته بطرف عباءتها، ثم أغمضت عينيها. رأته يقترب منها ـ تأملته طويلًا ـ يرتدي ثوبًا. له نور يشع من وجهه وجسده. أمسك بيدها، فتحت عينيها لتراه واقفًا أمامها. ارتمت بحضنه. بكت كثيرًا حتى وضعت رأسها على صدره، وبدأ يمسد شعرها وهي تقول له:

كان هذا المكان آخر مكان من الممكن أن يؤدي إليك. أعرف أنهم دفنوك ميتًا وما حسبوا أنك حي ترزق. لم

أستطع الحياة بعدك. صرت لا أخاف الموت أبدًا. تعبت كثيرًا. أصابني الهزال والمرض والحزن.

ـ عندما يموت الإنسان؛ إنما يعود إلى حقيقته؛ الحقيقة الكاملة، والحياة ليست إلا فقدانًا لهذه الحقيقة. الحياة تتنازع فيها الروح مع الجسد نزاعًا مستمرًا، ويأتي يوم الفصال. تعيش الحياة غربة وانكفاءً على الذات ويعيش الجسد فقدانها حين الموت هذا كل شيء.

ـ لكني لا أريد هذا الطابع المركب. لا أريد أن يفصلوا جسدك عن روحك، أو روحك عن الجسد. كلاهما أنت كلاهما أنا وحياتي.

ـ الحلم بوابة أخرى للموتى. في الحلم سأخبرك بكل شيء. لن تخفى عليكِ خافية. ستظهر لك الأشياء الكامنة. لن تضيعي بين المزدوجتين اللتين تدور حولهما الحياة والموت.

ـ عبثًا كنت أريد حلمي بك. لكني لا أحتمل تلك الحقيقة. صرت أخاف أن أفقدك. مرة في الحياة ومرة أن لا تعود إلي أبدًا. تتغير روحك.. تتبدل يصير كل شيء مختلفًا. تجد أحدًا آخر أي أحد غيري أنا..

وجهه الذي زالت عنه آثار الحياة. يداه اللتان استرختا على جانبي جسده. جسده الذي ينطفئ كلما صعدت درب الحلم.

يموت كلما استيقظت من حلمي به، فيبدأ عزاء طويل

لا ينتهي. أنادي وأنتحب ألَّا تتركني. أفتح عيني لأرى النباتات الطويلة على صدري قد صارت رفاتًا. أحملها وأخرج من المقبرة باكية.

في مملكتها العليا

تطير أعوام على حدودها

تبحث عن مرقدها الأبدي

كيف دفنت وجهك في راحة الياسمين

بحثًا عن رائحتها.

مقعد من جلد

قد كنت أدير سلوك الحيرة داخلي؛ لفوضى إحساسي الذي يغرق في شبر تفكير، وجلبة معاناة، وأنا التي أضحيت مهووسة باكتشاف أكثر سطور الحب صدقًا في حياتي. لست مؤمنة بوجود حب ثابت، بل أكثر إيمانًا بوجود حب متحول، وفي كل مرحلة من مراحل حياتنا نعثر على أشكال مختلفة. في كل مراحل حياتنا. عدم وقوعي في الحب، وعدم امتلاكي تجربة خاصة في الحب جعلا مني أكثر إيمانًا أن الحب ليس سوى «احتياج»، ولأني عرفت كبريائي كبيرًا بحجم داخلي لا أستطيع أن أطلب حبًا من الآخر؛ لأنه لن يمنحني الحب الذي أريد.

ممسكة بتصاميمي أضيف لمسات. استأذنني بالجلوس قبالتي. كنت أسأل عن تداخلات الألوان في الثلاثة في الكرسي ومقاومة الجلد الإيطالي لاختبارات الاستخدام المنتظم.

ـ بالطبع هنا مقاومة وكما ترين نوعية الجلد الرائعة.. هل لي بسؤال؟

أشرت برأسي موافقة..

ـ سمعت حديثك مع السيدة قبل قليل. كان غريبًا وصفك للأشياء. طريقة حديثك عن الحياة. ألا ترين أنك تبالغين بعض الشيء؟!

ـ لا.. هي كانت تتحدث عن حياتها، ثم تطرقت إلى الحب، وأنا أجبتها: في الحب ليس هناك «اعتدال» لأن غاية الاعتدال هي التطرف في الحب. عندما تحاول أن تحقق موقفًا معتدلًا أنت بالأحرى تبحث عن كيان مؤقت للعمر.

ـ هناك زوايا عنيفة بداخلك. أنتِ تستبعدين ذاتك عن الاختيار، والحياة الحقيقية المتمثلة بالحب.

ـ بل صار جليًا، ورؤية حقيقية لمن أراد أن يدرك مثلي ولو متأخرًا.

ـ هذه المركزية حول الذات تقصي طبيعتك الإنسانية. أقصى ما نرتكب في حياتنا من أخطاء فادحة هو ألا نعيش بشكل طبيعي خوفًا من المجهول.

ـ بل الأسوأ من ذلك أن نعيش مشاعر قاتلة.

لهذا السبب وليس لغيره أحافظ على كل أشكال مقاومتي في الحب. أقاوم حزني الأكبر، وجرحي عن طريق الوقاية والوعي المسبق.

ـ الاعتدال ليس الانقياد، وليس التراخي. هو تنظيم مشاعرنا. يجب أن تملكي القدرة على الاعتراف داخلك

باختلاف الآخرين لا تشابههم دون ملء عقلك بتحقير مشاعر الآخرين حين استبعادها.

ـ في الحب ليس هناك مساحة للاختيار. ليس هناك سوى طريقين: إما أن تشق طريقك نحو الحب وإما أن تنصرف بعيدًا عن حالة الحب تلك.

أمسك الكرسي الجلدي ذا اللون البني. وقف وجلس مرارًا، وهي تنظر إليه بذهول. قال لها:

ـ سألتني كمصممة إن كان الجلد الإيطالي في هذا الكرسي تعرض لاختبارات منتظمة لقوة مقاومته وتحمله. حتى أصبح كرسيًا يعرض في قاعة، وصالحًا كسلعة للبيع. إذن كيف تحكمي على نفسك، وأنت لم تعرضيها لتجارب قد تجعلها أكثر مقاومة مما تتخيلين، وأكثر صلابة وقوة؟!

ضحكت ووضعت أصابعها على فمها:

ـ تشبيه بليغ.. لكني اخترت كما الكثير ممن لديهن عقول واسعة الطريق الآخر.

ـ ماذا تريدين من الحب لكي تحبي؟

ـ يااه سؤالك هذا يفتح أبواب السماء على روحي لتستسلم وتبحث في الحب عما يثير اهتمامها. أنا أشبه الكتاب الصغير الذي ينتظر أحدًا ليقرأه، ولكن ما من أحد يستوعب أن داخل هذا الكتاب عبارات عظيمة لم يمسها شيطان الهوى!

ـ كيف تمتلكين قدرة على الهرب من سؤالي المركزي الواضح والمحدد؟!

ـ أعتبر نفسي غريبة؛ لأن لي نظرة مربكة إلى الحب. أتوق إلى فهم العالم. أولًا ليست الحياة قائمة على أهداف، بل على قدرة عالية على التركيز والاستيعاب أن الغريب لا يقاسم الآخرين شيئًا. لا عاداته ولا سلوكياته، ولا حتى قدرته. لذا أندهش من بعض الأشياء التي قد لا تثير اهتمام أحد. هذا الوطن الذاتي الذي يخصني ومن صنعي وقوانيني الكونية نحو ذاتي منحني مسافة لأصل إليها بين جسدي وذاتي. مساحة من الانفصال يلبسني فيها الجسد، وآخره الروح. مسافة تتيح لي تلقي التفكير بين هذين الهاربين من وجه الحب.

ـ أصبحت إذن روحًا وجسدًا ولم تجيبي عن سؤالي الأزلي.

ـ لا أجرؤ على الإجابة عن سؤال كهذا.. غياب تلك التجربة المؤلمة في الحب تجعلني لا أجرؤ على سرد رغبات لم أعشها.

ـ تبحثين عن البطل إذن؟!

ـ بل أبحث عن الإنسان. الذي يجلب لنفسه القدرة على امتلاك الأخطاء غير معصوم من ابتذال تلك الأخطاء لنفسه، فلا يستهويني الأبطال؛ لأنهم لا يمثلون المنزلة الإنسانية.

ـ إذن ما الذي يزعجك، وأنتِ خارج إطار الحب؟

ـ إنني أشعر دائمًا بأن حالة من العشق تناديني، ولا

أملك الانقياد لها وأشعر من الصعوبة أن أحافظ على هذا الحد العازل بين الحب وتفكيري فيه.

- أدركت ذلك إذن...

- أدركت أن أثر الحب موجود، ولكن هناك دائمًا قدرة بداخلي على العصيان. تركت له المقعد الجلدي، وتوقف عن تكرار التجربة في معرفة مقاومة الجلد لكثرة الاستخدام، وعن نظرياته وعن كل شيء إلا دهشة حولها ظلت تحيط حواسه.

قطفت بِيَدِي وَجْهِي
حَتَّى الْمَسَافَة لمِيلادِي الْقَادِم
كَي أَرْتَدِيَه

قبعة على الرأس

يتوجه الحارس في ذلك المساء نحو الشارع. بينما ناريز ومحمد يديران ظهريهما للمركز الخاص بالاستشارات النفسية لتأدية مهمة صحفية. يقف الحارس ليؤدي التحية لأحد المارة، ثم يلتفت محمد وناريز بجدية إلى الدكتور الذي أتى توًا من الولايات المتحدة. ينظر إلى محمد. يرفع قبعته قاصدًا التحية. يتداخل حولهما حشد من الأجساد. تغيب ناريز بمقدار خطوتين عن محمد الذي كرس تركيزه على استشاري المخ والأعصاب الذي جاء ليقدم دورة حول مخاوف الرجل والمرأة، ثم تنبه محمد لتلك التي أبعدها الزحام. توجه نحوي باندفاع، ثم أمسك يدي بقوة أكثر من أي وقت مضى. انفصلنا بعدها في قسمين. كنت في القسم الخاص بالنساء، وهو في القسم الآخر. يفصلنا حاجز خشبي صغير، وقصير يساعد على رؤية كل شيء؟ لكنه بالرغم من عدم جدواه إلا أنه يظل في نظر البعض غير

مفتقد لمسماه كحاجز. ربما حاجز للأعراف والتقاليد. ربما لاستمرارية الاقتناع بجدوى فصل النساء عن الرجال. حتى لا يحدث التماس الجسدي.. هذا التماس الذي جعل كل شيء محرمًا. ما زلت أتذكر تلك المحاضرات الثقافية التي أحضرها في النادي الأدبي مرارًا. وأشاهد ذلك الرجل الذي تولى مهمة الدفاع عن حق الإنسانية بالمشاركة والتفاعل دون حواجز. كان الجميع يسخر منه لقصة حياته الغريبة، ويندد بتصرفاته، بل يتعامل معه بحقارة بالرغم من أنهم جعلوه مادة ثرية في مؤلفاتهم. كما أنا أكتب عنه الآن. حتى ذاك اليوم الذي رأيت فيه إحدى المنظمات.. تلك البدينة ذات الأصول الأجنبية.. تلك التي نظمت حدثًا لا يتصل بالنادي الأدبي، ثم طالبت بإبعاده عن المحاضرة. طالبت بذلك بشكل فج، ولا يمت إلى الإنسانية بشيء. لم تكن تعلم بأني سمعت حوارها من خلف ذاك الحاجز الذي كان يطالب هو بإبعاده. تعاملها اللاإنساني جعلني أثور، وبي رغبة لألقنها درسًا لن تنساه، وأنا التي لم تدافع يومًا في قضاياها إلا عما هو إنساني. لكنني تراجعت ليس ضعفًا؛ لكن بدينة بهذا الحجم تأكل كل ما يأتي أمامها دون عارض صحي يقف عائقًا؛ لرشاقة جسدها.. هذا يعطي إيحاءً بسيطًا أنها لا تفكر سوى في معدتها أي إن عملية التفكير بواسطة العقل تأخذ وقتًا طويلًا؛ لذا لم أحب أن أخوض معها في

ذلك الحاجز الذي صار حرامًا إبعاده. هو ذاته ما يؤجج الإثارة والافتتان، بل تنافس ذات العباءة السوداء الفضفاضة وغطاء لا يكشف سوى عينيها المتأملتين وهي تتوق إلى الكون الفسيح، وإلى الوصول إليه. جعلت من المرأة السعودية أكثر إثارة للرجل. يبحث حولها عن سر ما تحت الغيمة السوداء.. تلك من نساء يضاهي جمالهن جمال نساء الكون بأكمله.

بدأت الدورة التي لم تكن بتاتًا باللغة العربية، ومنذ العبارة الأولى أصبحت مقاطعات الحضور تفوق عبارة واحدة يقولها المحاضر لتشتت انتباهه. أتى هذا المحاضر وهو يعرف الخلفية الاجتماعية والثقافية لهذا المكان. ويدرك حجم الكوارث الاجتماعية لدينا. أتى وهو يدرك تفاصيل حياتنا اليومية، وما هو محرم وما هو جائز، وغالبية الأحكام التي تقال جزافًا. حين يتجه الحوار ويثار عادة حول المرأة وحقوقها. أتى وقد تزود فكريًا بكل التفاصيل الاجتماعية والدينية هذه من خلال شبكات التواصل الاجتماعي، التي نسيء التعبير عنها وعن المرأة التي نمنح أنفسنا الحق في الحديث عنها، وكأن كل امرأة في هذا المكان هي ملك عام. تمامًا مثل الأراضي والمنشآت والمستشفيات والمدارس. مثل كل هذه الأشياء للكل الحق في الحديث عنها وبدلًا منها. مادامت هي لا تزال صامتة «حقوقيًا». أتى وهو يعرف أن كل الأشخاص يمثلون

شخصًا واحدًا، مهما تنوعت المعتقدات الدينية والمبادئ والأفكار كأنما سيخاطب ذهنية واحدة. مهما اختلفت قليلًا ستظل داخل هذا المحور. كل ذاك ينطلق ويشير بشكل جلي إلى تفاصيلنا. بدءًا من الحاجز الخشبي. كان محاضرًا مستفزًا جعل من مجموعة الحضور يتحدثون دون صمت بين ساخط وشاتم، بين متفهم ومندهش. حين قال: إن الرجل يستقر جسديًا مع المرأة الأقل جمالًا في كل شيء وهو بذلك يعني الروح والجسد والفكر. كل ما قاله جعل النساء جميعًا ساخطات؛ لأنهن يردن أن يبعدن عن بعضهن، وبالتأكيد ليس الكل، صفة البشاعة تلك، ثم أنهن مثيرات باعتقادهن كشأن آخر للسخط أمام أزواجهن. محمد الذي يفصلني عنه هذا الحاجز الشفاف وضع يده على أصابعي التي تظهر من حلقات الحاجز، ثم قال لي:

ـ الآن علمت لِمَ كل شيء فيك يثيرني؟!

لم أتمالك نفسي..انفجرت ضاحكة من مشاكسته لي لم يسمعني أحد من النساء الساخطات على الدكتور، بل جميعهن بلا استثناء، على اعتبار أنهن جميلات فاتنات ومثيرات. نظرت إليه وقلت:

ـ لا تشاكسني سأخبر النساء أنك من أوحيت إلى الدكتور بهذا!!

حتى تعاظم الصخب من إحدى الحاضرات لتصل إلى الدكتور وهي أشبه بمتوعدة..

ـ ماذا عن زوجتك يا دكتور؟!

بالطبع هي تتحدث منطلقة من منشأ اجتماعي يدفعها لأن تتعامل ليس بثقافة الاختلاف، بل بالضدية والكراهية المعلنة.. تلك التي يصاب بها من هو على النشأة ذاتها. تتلخص بطريقة الحوار ونوعه حتى تلك القذائف من البذاءة التي تخرج من أشخاص غير مدركين إلا أنه يكشف تمامًا حقيقتهم على الملأ. تلقى الدكتور أولى فردات الحذاء النسائية على وجهه.. تلك التي تلقى بوش الابن مثلها كتعبير عن الرفض. لكن هذا الاستشاري في المخ؛ يفهم تمامًا كيف يثير بداخل الآخر الرفض؟ بالتالي هو يحقق المزيد من الشهرة مقابل ذلك. حتى ختم الدكتور كلامه وقد غادرت نصف النساء احتجاجًا ورفضًا. بعد أن كتب على نفسه السخط أن الرجل أكثر عاطفة من المرأة وهو يخافها؛ لأنه يخاف وعيدها ذلك الذي يكون في اللاوعي فتقطع له ذاك الشيء..!!!

الرجل المتدين الذي يقف في الأمام بعد أن أصبحت الجهة الأخرى ممتلئة تمامًا؛ جعله هذا الكلام متورد الوجنتين، والبعض الآخر صار يضحك بشكل هستيري. تعقبها عبارات بذيئة تثير الضحك، فتطول المساحة. اقترب الدكتور مني، ومحمد ينظر بذهول إلي، وأنا التي لا أجلس

إلا في أول كرسي مواجه تمامًا للدكتور. طبعًا اقترابه عادي جدًا. وهو الأمريكي الهوية والثقافة فلا غرابة من أفعاله. لن يعلق على تصرفه سوى من أوجس في نفسه غيرة كمحمد. نزع قبعته للمرة الثانية، ولكن هذه المرة ليس ليقوم بتحيتنا، بل ليضعها على رأسي، ويقول لي:

(كنتِ الأكثر اتزانًا يا ساحرة العينين) يخرج الجميع بينما ناريز تجرجر قدميها خلف محمد بشيء من الحذر، وقد أصبحت بعيدة عنه، وقبعة الدكتور في يدها تختفي في مكان ما، ثم تظهر. محمد غاضب. يقف حتى يتقابلا بشكل عكسي خارج المركز. تنظر إليه بترقب؛ لأنه يوم ميلادها، وهو من دعاها لمشاركته في هذه الندوة كي تخرج بشيء جديد في أول يوم من عامها الجديد. قطعًا لم يكن قاصدًا قلة جمالها، أو أنه يخاف أن تقطع ذاك الشيء الذي يخافه أي رجل، بل كان يريد أن يظل معها لأطول وقت ممكن، وهو حولها وحول ميلادها. كان يحلم أن يقدم لها أولى هداياه. لا أن تقبل أن تحصل على قبعة ذاك الدكتور مع غزل صريح. محمد يقترب منها:

ـ أنتِ تقولين دائمًا نعم!!

ـ لا.. قد تغيرت سأحتفظ قليلًا بالإجابة.

تتوقف سيارتها تصعد ناريز مع سائقها، وتغلق باب السيارة. يخرج الدكتور برفقة رجل من المركز، بينما قبعته على رأسه، ومحمد يراقب قبعة الدكتور، ثم سيارة ناريز التي تحركت في الطريق.

لماذا يزيح شعري عن وجهي

لماذا لا يطلق يدي التي صارت

روحًا في يديه.

يدها

لم يكن الجميع في الماضي كما هم الآن يرتدون رداء الاختلاف. كيف نبرهن تلك الحقيقة المتغيرة؟! وأي البراهين التي نقدمها للمقربين على أننا نزعنا من رحم التغيير؟!

من منّا انتقد ذاته ونجا بها حتى لا تقع في بؤرة التغيير. الأشياء الوحيدة التي بقيت وداخل بعض منا لم أستطع أن أنجو بها من هذا التغيير. بإيقاع هادئ ينمو بشكل متسارع في أذني جعلني أسأل نفسي ما السبيل إليه؟!

كيف أستطيع أن أقتحم تفاصيل حياته؟!

بداخلي رغبات مجنونة لا أعرف نهاية السيناريو الصغير لحياتي. رأيته صدفة.. أستعيد كلمات سمعتها يومًا «هو الشخص الوحيدَ الذي بإمكانه ذلك».

اقتربت... لم يسبق له أن رآني. لم يسبق لي أن رأيته إلا لحظات خاطفة. كان يمسك يد امرأة لم تغرق تفاصيلها في أي ملمح للجمال، ولا أعرف لِمَ شخص كهذا يرافق سيدة فقيرة الجمال؟ اقتربت... كان ساكنًا يرقب بعينين خجولتين المارة، ولا يلقي بالًا لمن كانت بجانبه. وضع نظارته على الطاولة الخشبية. اقتربت أكثر كمن تود أن تدير معاركها الأولى. تنبه لقربي رفع نظارته الشفافة تلك التي بلا إطار ثم نظر إلى القادمة بتمعن. مددت يدي إليه أولًا. كانت ترتجف وكان ملمس يده حبًا احتوى رغبة جنون ـ لا أكاد أتذكر ـ ، ثم صافحت المرأة التي برفقته، وعدت إلى مكاني. سوى كلمات قليلة تبدو لي من رقتها كمعزوفة هندية. غادرته... من تلك الأيام حاول أن يقترب مني مرات ومرات والصدفة كانت مستحيلة. لم أستطع أن أخبره بالذي أريده منه. كان لابد من بناء قاعدة معرفة بسيطة تزيح الخجل. ما الذي تريده المرأة من الرجل؟!

ما الذي تريده أنثى مثلي من رجل لم تقابله يومًا؟!

في تلك الساعة المتأخرة من الليل رفعت سماعة الرأس إلى أذني... في تلك الساعة التي يوشك فجرها أن يطل... بقيت صامتة كمن سينطق بالكلمة الأخيرة في حياته. عادت لي الرجفة والمعزوفة الهندية ذاتها ثم ختمتها بعبارة أخرى.. أود رؤيتك؟!

انقطع الاتصال. سألت نفسي في ذهول: ماذا قلت لهذا الرجل؟! ربما سيفسر تصرفاتي عشقًا وهوى.

كم أنا غبية لماذا أريد أن أراه لأقنعه بفعل ذاك الشيء؟!

حان الموعد، ووجدت ذاتي أمامه. أغلق الباب الخشبي. كان يقف بعيدًا ثم اقترب حتى كاد يلامسني. مسك يدي بعنف، وأخذني إلى غرفة صغيرة. فتح جهازه وصفحاته على الموقع الإلكتروني «الفيس بوك» وبغضب شديد قال:

ـ أيتها الصبية المغرورة.. انظري ماذا فعلت بي يدك وعيناك اللتان أقسم إني لم أر مثل جمالهما. لا يشبه جمالهما شيء لا في الأرض ولا في السماء.

وأنا في داخلي أقول:

ـ يدي!!

وأنا التي أتيت أريد يدي منه.

أمسك بغطاء وجهي، وأزاحه، فتساقطت خصلات شعري، فأعادها خلف أذني. كنت سأسأل نفسي «كيف أوقعت نفسي في هذا؟!»

كيف أستطيع أن أملك القدرة على إخباره أني لا أحبه؟. اقترب من وجهي. غرس شفتيه في فمي. دفعته بكلتا يدي. حاولت أن أوقعه، ثم مسح طرف أصابعه بشفتيه بخجل. طأطأ رأسه وأردف:

ـ «أنا آسف» هل ترغبين في شيء.. قهوة أو عصير؟

ـ قهوة تركية من فضلك. ذهب إلى مكان بعيد. بقيت أقرأ كلماته التي دونها لي منذ أن رآني. عرفت أن يدي التي صافحته لم تكن سببًا رئيسًا في كلماته، بل الغرور الرصين الذي لم يمنحني إياه منذ وقت مبكر!!

ذهبت إليه... بحثت في كل مكان حتى وجدته. رأيته يدير ظهره، ويسكب القهوة في كوبين صغيرين. اقتربت منه أكثر... احتضنته من ظهره برفق قلت له:

ـ لم أستطع أن أتحمل خداعك أكثر. لم أحبك يومًا. أتيت لهدف آخر صدقني!!

أبعد يدي عنه ثم استدار أمامي بوجهه. أخذني، واحتضنني بشدة.

ـ أيًا كان السبب يكفي أني أراك الآن أمامي.

عدنا إلى تلك الطاولة شربنا القهوة. طلبت منه أن

يقرأ فنجاني. كان يحاول أن يحصل على أكبر قدر من المعلومات حول ما أتمنى وما أريد. ليخبرني أن ذلك سيحدث في القريب. ظل كوبانا الأبيضان معتقين ببقايا القهوة التركية. يومًا بعد آخر اكتشفت أنه لا شيء يتحقق مما قاله لي سوى سكون نفسي حين أكون بين يديه!

أَنَا الْطَائِرِ الَّذِي يبجلك

فِي قَصِيْدَة

لسانك الطير

لليل الذي يكتحل دون أن ترمش عينه، وهو يبدد الغسق؛ يجعلني أفتش مئات المرات، وأبصر الظلام. لطالما كان الليل يجعلني أقترب إلى نفسي أكثر، وبالنسبة إلى الأشياء الأخرى أكاد أفتقد ذاتي أفتقدها تمامًا، كما لو أنني لست على قيد التأمل ذلك الذي يستنطق فيه الليل روحي، فتهرب في بوح ظلماته، ويؤجج أحاديث الروح، والحلم الأخير من كل ليلة. عليَّ أن أصدق أنه كذبة روح معلقة على شفا حفرة من السماء؛ تلامس القمر، فتنتشر فيها بقعة من النور تتخلل الحلم، أطلت الحلم أطراف الليل وآناء النهار كأنني أشترك مع المسافرين في تلك المتعة الضوئية وأحاديث النفس الخافتة والشعور بالوجود أكثر بينما الحقيقة تقول هذا أيضًا لكن شعوري يقول كلامًا آخر يشبه ما قاله لي في الظلام ذات مرة.. ألا تتذكرين؟ كنا نتحدث في كوفي شوب مطل على البحر في مدينة المنامة.. يوم أن علا صوته داخلي أكثر، وغرس وجهي في

إناء ضخم من آيس كريم الفانيلا. قبل ذلك كانت محاولاته ناجحة في أن أقرب وجهي إلى الإناء أكثر، وهو يخبرني أنه بمجرد أن نشم الفانيلا سنقاوم إحساسنا بالجوع. تلك الفانيلا التي تحمل اسمًا علميًا آخر وهو «بلانيفوليا» النبتة الأغلى ثمنًا بعد نبتة الزعفران ؛لندرتها. وأن أَصْلَ اسم «الفانيلا» جاء من الكلمة الإسبانية «الفاينيلا» وتعني «القرن الصغير» وقبل ذلك قالت لي سلفًا :

هل تريدين أن تريْ وجهك أبيض ناصعًا؟!

وقفتِ غاضبةً، ويدك تلطخت بالفانيلا، متوترة ثائرة من هذا التصرف الذي لم تحبيه قط، فانكسر من حدة غضبك إناء آخر مغمور بحبات الفراولة الطازجة، وكأنك حينما وقفت بغضبك تساقطت حبات الفراولة منكِ. صرخاتك وصوت الانكسار جعلا كل من في ذلك المكان يستجيب لصراخك، حيث شيع الجميع غضبك وأنت تتركين لي علامات استغراب كثيرة جعلت ضحكي يخفت محرجًا ويتبعك، ولكنك اختفيت منذ ذاك الوقت. واليوم هاأنا أقف في مدريد ـ عاصمة الفانيلا النبتة العطرية التي خسرتك بسببها ـ قريبًا من بيوت الصيادين، وطواحين الهواء التي كنت تحلمين أن ترفعي لها قشور الشعير. ألامس الصخور حتى تبدو بلونها الرمادي. بالرغم من الظلام فإن وجهك هو الذي يحيي داخلي رميم الذكريات. في الباحة المقابلة رأيت القمر يتسلل من خلال شجرة ضخمة. كان وحيدًا مثلي يفوق يدك، ونبتت الفانيلا تفوح بثياب عطرها للقمر الذي

تركها واعتكف في السماء المظلمة. كيف تشبهينه في كل هذه الكبرياء؟ وأنا أنحني بِوَلَهِ عاشق لنهدك. ذاك النهد الصغير الذي يشعل حاسة الشم فتتفتح جنائن عطر الفانيلا؛ لكنها لا تضاهي رائحته، ولكنك دائمًا تختارين الهرب والغضب وتقيمين فاصلًا زمنيًا بيننا. بينما أنا أمعن النظر في السماء وأدندن بأغنية قديمة!!

لماذا وقفت الملائكة صامتة بيننا؟!

إيهام غير مرئي للجسد

في ذاك المساء الشتوي الذي تنزل من وحي الانتفاضة؛ وجدت نفسي أتأمل إلى جانب ثلاثة آخرين، اللوحات التجريدية المصفوفة بعناية على الجدران البيضاء. في تجمع في منتهى الفخامة، ويعبق بمظاهر الترف، حتى رأيته يقترب مني، ويشد على يدي أن آتي معه إلى مكان آخر.

الحديقة المطوية على صفائح الظلام، أخافتني الأشجار التي قتلها السعال حتى أمالت عنقها إلى الأرض، فتساقطت أوراقها، وظلت كيد عجوز تحولت من ركلات العمر إلى ساحرة توهم الذات الأخرى. غير أن ذاتها تغمرها سنون فانية. نظر إلى عيني اللتين تبرقان في الظلام، ولخوفي الذي جعل يدي تلتصق بيده ذات الشعر الكثيف، وظهره الوحيد الذي يوحي لي بالأمان. في كل تلك الرهبة طلب مني أن أنتظر. قبل أن أدخل معه ذلك الباب الضخم. مع أن الجو شديد البرودة وكتفيّ في عريهما تغطيهما

خصلات شعري الأسود الطويلة. أفلت يدي ودخل إلى تلك القاعة. بينما أنا ظللت هناك في الخارج وحيدة مع الليل أتنفس بخارًا أبيضَ ويتنفسني. كيف يمكنني أن أفزع أكثر من اقتراب قطة تتحرك في الليل مغمورة بالسواد؟ حتى خرج إلي. سقطت بقوة إلى صدره. التصقت كما لم أفعل من قبل. حتى احتواني بذراعيه كقطعة فنية نادرة. يداه تتحسسان شعري المسدل وكتفي وظهري العاري، وفقرات ظهري واحدة واحدة. ربط عيني بقطعة سوداء، وطلب مني أن أدخل بعده لمست بيدي مقبض الباب. كان شديد البرودة ومعدنيًا. فتحت الباب وصوت موسيقا هزيلة يحيط بالمكان على اختلاف زواياه. تقدمت خطوات بسيطة حتى أحسست بشيء أمامي. قطعة قماش تغطي مساحة خشبية كبيرة. أمسكتها بيدي، وسقطت على الأرض عند ساقي. أزحت الغطاء عن عيني. هالني حجم تلك اللوحة الضخمة. تخرج من سوادها امرأة تشع بالنور لها التفاصيل ذاتها التي تشبهني كما لو أنها أنا. قال لي:

- إنها أنتِ

في ذهول..

- لي!!

ابتسم:

- بل لميلادك القادم!

اقتربت منه كما لو أني ألجمت عن الكلام. أذهلني أكثر من اللوحة، كونها لي ومن أجل ميلادي. إنه رسمني من داخل روحه كأنني لمست من أنا هناك في أعماقه!!

وكيف يراني بثوب الجسد والروح معًا. أو أنه يراني من خارج الروح مجرد جسد فلا أحد يفكر في الروح.

ـ كيف كنت ترسمني بالروح أم بالجسد؟!

ـ أستطيع أن أشاهد جسدك الذي يبقى في عيني ولكن الروح لا تشاهد إنما تحس.

أخذني من يدي إلى أريكة طويلة ذات لون خمري. كان الجو باردًا، فجلس قبالتي ورمى لي بقطعة صوف أخفي بها جسدي الذي يلعقه البرد.

وضعت رأسي على ساقيه بعد أن احتضنني، وكان شعري نثار الليل الباقي. كم كنت أخاف من نظرات الفنان إلي! وكيف يستطيع أن يحبسني في لوحة يده التي تمسد جبيني وشعري؟!

ـ شعرك ليس إلا فرشاة لفنان عالقة بأطراف لوحة...

ـ كيف هو خيالك؟

ـ مريض حين يتعلق الأمر بكِ!!

رفع رأسي وقبلني من جبيني، حتى أجلسني، وذهب

ليأتي بطبقين من الفوتشيني اللذيذ، وأشواك فضية طويلة جدًا. ظننتها من أجل أن نمزج بها المعكرونة، لكنه قال لي إنها تؤكل بها.

بدأت أتعلم منه كيف يدير شرائط الفوتشيني باستدارة فنان أخفق معها؟ حتى سخر مني:

- عجبي من النساء طاهيات من الدرجة الأولى، ويخفقن في تناول الأكل بمهارة!

بغضب وحنق شديد، وإجابة مقتضبة وغير مبررة:

- ليس ذلك!

ضحك ساخرًا حتى من إجابتي المرتبكة...

قطع المشروم في الفوتشيني والكرفس والبهارات الإيطالية، تثير شهيتي، وهي تتقاطر من الشرائط. قام بمزجها وأشار إلي بأن أفتح فمي بعد أن التقط واحدة ظننته يناولني إياها، لكنه قبلني، ثم وضع المشروم في فمي!

لا أعرف الكمية التي امتلأت بها بالونة بطني الصغيرة. حتى حاولت قبل أن أقف أن أغرس قطعة الكرفس في فمه. فتح فمه، وأغمض عينيه فقبلت وجنته اليمنى، ثم غرست في فمه الكرفس. حمل الأطباق، واختفى في مكان آخر، وذهبت إلى تلك المرآة في دورة المياه. انسكب الماء على يدي. جاء مقتربًا مني احتضنني...

أنظر إليه، وأحدث المرآة كما يفعل هو ذلك معي. كائنات من عين المرايا. أزاح شعري إلى الأمام، ولعق كتفي حتى رقبتي، فتحسس جلدي. صار أحمر. نهرته وأبعدته...

ـ إنها شمس الحب الحارقة. لا تخشي شيئًا ستعود غيومك وتهدأ.

أدار مقبض الماء الذي صار ينزل من أعلى البانيو بشكل كثيف. توقف هناك وتبلل. مد ذراعه لي تسلقت تلك الدرجات، ونزلت في البانيو معه، تبللت. قال لي:

ـ ألم يكن حلمك يومًا أن نتبلل معًا تحت المطر.

احتضنته، والماء ينسكب على جسدينا. قلت له:

ـ أحيانًا يفعل الجسد مالا تريده الروح.

ـ كان وعدك لي أن تقولي لي تحت المطر ما لا تقدرين على قوله في أي مناخ آخر...

ـ كنت أريد أن أقول لك: ما أحببت شيئًا في حياتي أكثر من جنونك، واهتمامك حتى بأمنياتي الخيالية. أخبرني الآن كيف سأخرج مبتلة هكذا؟

ـ لا عليك ستخرجين مرتدية ملابسي...

قطف وردتين طبيعيتين بيضاوين. وضع إحداهما على شعري، وتحديدًا فوق أذني اليسرى. أوهمني أنها ستكون الأقرب إلى قلبي، وأخرى بين نهدي. قال لي:

ـ في السماء جنائن، وفي صدرك جنتان مختبئتان. قربانًا لهما أضع تلك الزهرة التي لا تقترب من سحرهما، ولو قليلًا، يستحق جسدك أن يملأ بالزهر...

انسكب ماء كثير، وأنا بين ذراعيه بزهرتَيَّ...

ـ لماذا لا تحاولين الاقتراب مني؟ هل من شيء تخشين وقوعه؟

ـ نعم.. أن.....

ـ سيكون أجمل حدث في حياتي!!

صفعته مبتسمة، ثم وضعت أطراف أصابعها على شفتيها المبللتين بالماء. نظر إليها. واقترب، وبدأ يقبلهما بخفة على إيقاع ذاك الماء الذي يتصبب من الأعلى. أزاح كفها وقبلها من شفتيها كمالم يقبلها أحد من قبل. وكأنما يؤدي صلاة العاطفة في سكون، وتبتل. تراجعت إلى الوراء على ذلك الحائط اللامع، والماء يزخ بغزارة. حتى تحول إلى رذاذ، وبدأت تقل زخاته العنيفة. صعدت تلك الدرجات الصغيرة، وجلست أعلاها، وهو تحت الماء يقول بشيء من الارتباك:

ـ كنت أريد لك أن تصقلي معي جوهر داخلك. سيتلألأ بقدر الحب، ويضع بريقه كلما تساقطت عليه قطرات السماء.

ـ أخاف الرجل الذي يفكر أن ينظر إلى روحي من أطراف الجسد.

ـ هذه النظرة لها خصوصية تجاه الأنثى، والأشياء والعالم أيضًا. تخص مجتمعًا بعينه، لكني لست شريكًا فيه وأنتِ تعرفين!

ـ إذن دعني أتعود قبول الأشياء منك كما أريد.

ترك لها المكان، وخرجت فيما ظلت تنتظر أن تجف ملابسها. لم تكن تريد أن ترتدي ملابسه. خرجت وشعرها رطب. توقفت أمامه. كان تمامًا مثلها تتساقط قطرات الماء من أطراف ملابسه.

احتضنته، بعد أن أدركت أن قراره مشارك لها، فلم يستبدل ملابسه؛ لأنها رفضت أن تفعل. كان يريد أن يشعر بالبرودة مثلها بكل الأشياء التي تشعر بها. وضعت ذاك الغطاء الصوفي على جسدها. بينما هو أيضًا ظل يكمل لوحة كان قد بدأها لامرأة نصف عارية!

خذ مفتاح المدينة من عنقي

وكل الزوايا هي دمي

وأن الانتظار صار طويلاً

طويلاً طويلاً طويلاً

طويلاً بلا ظل.

لا أنفلت من سحر شيطاني

تصحو من عتبات النوم الليلي في لوس أنجلوسLos Angeles، وتردد أهازيج مضمرة كنغمة تراثية في خفاء نفسها، والستائر تبعد يدها عن عيون الكون البيضاء ساعة الشروق. تغسل وجهها بالماء، أو تغسل الماء بوجهها. جملة في منتهى الغرابة، لكنها لا تعرف لماذا تصر على كتابتها ههنا بالذات على هذا الشكل وفي هذا المكان الذي ترى فيه الوجوه الهندية باختلاف كبير عما تراه بشكل مهمل في بلدها. ترتشف قهوتها في DuPar's Coffee Shop ورغوة تعلو الكوب، تلتصق بإصبعها، فترفعه إلى شفتيها لتتذوق شيئًا من اللذة على الطاولة الخشبية ذات الثماني وردات بيض. تبدو قطفت توًا بعناية كبيرة من حقولها، ووضعت في فازة صغيرة شفافة على هذه الطاولة بجانب الصفحة ذات الاتجاهين لعروض الإفطار، وتلك الكنبة من الجلد الأحمر القاني التي تحيط بحوافها. قطع خشب مستطيلة الشكل. يأتي عبد الله وهو من سكان لوس أنجلوس

منذ أكثر من ثماني سنوات، بوجهه المتذمر الحانق المتقطب. يلتصق بوجنتي بقبلة باردة لا توحي بأي علامات للحب، كما كان يوحي لي بها من قبل أن آتي إلى هنا.

يضع النادل الفطائر، وعصير البرتقال الطازج. هذا الإفطار الذي لم أتذوق منه سوى كوب قهوة ساعة انتظار، وكنت طوال حياتي أجد أن لها في داخلي طعمًا ثابتًا لا يتغير في كل مرة أطلبها. بينما عبد الله الذي ظل إلى وقت قصير. تبدل عشرات المرات وكان يضعني سببًا كبيرًا لأقداره وإخفاقاته.

كان يتناول إفطاره ببرود تام. خرجنا بعد ذلك إلى مكان رملي على شاطئ طويل في ساحل غربي. جعلني أشعر أن حريرًا ما يحيط بقدمي، وحولي تحوم طيور غير خائفة. كان للمكان خليط متحد بين السحر والنقاء والطبيعة الغامضة.

السماء وحدها كانت متدلية من الأعلى، لدرجة أن السحب تتداخل نحو أجسادنا. هكذا أحسست أن السماء تلتصق بالأرض كأنثى فاتنة ألقيت على سرير من حرير فتدلى رأسها، وانسكب شعرها الغجري إلى الأرض لتخرج لسانها؛ مشاكسة ووجهها المقلوب لعاشقها الصامت، كما هو عبد الله الآن بجانبي ساكن لا يتفوه بأية كلمة. بعد أن سرد لي عن مشاركته في مؤتمر واشنطن الذي دعي إليه

مؤخرًا. أرى الشاطئ وزوقًا يشبه تلك الزوارق الورقية التي كنا نلعب بها في بركة ماء صغيرة، وندفعها بهواء من حفرة صدورنا الصغيرة. فركت عيني لأعود من طفولتي، وأنا أمعن النظر في عبد الله، وهو ينظر إلى سيدة عارية تمامًا على الشاطئ كأنها حمامة بهيئة بشرية، تحط على الأمواج وتغرق حينًا آخر، وهو من احتضنني في ليلة سابقة، وهو يهمس لي أن فتيات أمريكا لسن فتيات معتدلات، ولم أعرف إن كان حكمه جائرًا على آنسات أمريكا، وهو الذي أهمل الشقراوات في حين أني كسعودية لم أبد متعرية الجسد على شاطئ منذ وصولي الأول إلى لوس أنجلوس. شد على يدي وجلسنا تحت مظلة ذات لونين الأزرق والأصفر، والموجة الزمردية تنكسر على جسد الماء كما تنفجر أنبوبة لتثير حفلة ماء انفجارية.

نظر إلي عبد الله وقال:

ـ ما شكل أحاديثنا بقرب الماء؟!

ـ صامتة في أغلب الأحيان!!

كانت انفجارات الماء تلك تثير داخلي رغبة في الانغماس داخلها بترف كبير، لكنني لم أحاول أن أتعرى أمامه، فيما رأيت المرأة العارية تلك تقترب جدًا من مكاننا، وكأنني أشعر بعبد الله يشد على يدي، وكأنني أستمع إلى ما يقوله هذا المستقر في هذه البلدة. إن شيئًا من

جسد قداس يظل بقربه شيئًا معبأ بطقوس الحكمة، والفضيلة تغلفه العفة والطهارة، ولم تمسه قط بلاد الحرية هذه. كيف لي أن أبصر رجلًا يريدني امرأة من هناك؟!!

هو يبحث عن تلك البشرة التي تشبه سمرة التربة في وطنه، وأنا التي بحثت عن رجل أعياه القمع لبلاد الحرية، فاختار المكان. أي وجه شبه بين خياراتنا ورغباتنا؟ وماذا كنا نريد منها؟!

تلاشى التأمل، وحالة المراقبة لكل شيء حولنا حتى لحيوانات البطلينوس المنتشرة بكثرة. تحرضنا رغباتنا كشمعة تضيء داخلنا رغم أنها تموج بظلام الصمت المهيب، وقليل منا يحاول أن يستضيء بضوئها. أنا الهاربة من حالة المجتمع الذي كان يثرثر بقليل من الحكمة.

المطر الذي يفضي بوابل من شجن تضج به وجوه العابرين، وهو يتفحص القطرات الهاربة من السماء على وجهي، تسقط أسفل فمي يمسكني بيده.

- ماذا ستسمينني؟!

- قمراي.

قبلني من فمي في خشوع عاشق مغترب اجتثت مشاعر الحنين روحه، فرفت لجسد سمراء من جذور وطنه.

ـ ماذا يفعل بي طين متساقط من الجنة؟!

خلف الأفق... كان يشد شعري لأنظر هناك، ويضع يده على وجهي كي لا أنظر إليه بطريقة مشاكسة.

ـ عبد الله!!

ـ لست عبد الله.

ـ أعرف لكني أخطأت أول مرة في نطق اسمك، وأردت أن أكرر الخطأ. أحببت هذا الاسم.

اسمح لي أن أناديك بهذا!!

مطت شفتيها، وملامحها متوسلة، جبينها يتكسر، تبدو كملمح وجه طفولي.

ـ لماذا تستفزين رجولتي!!

اخترقها بقبلة. لا يدري كيف عصف بها على وجنتها؟، وتسلل إليها كعاشق تكسر مع ذاك الزجاج التي قالت له يومها هناك من يبني جدران الجنة الزجاجية، ويأتي بمنشار فتتطاير شظاياه الصغيرة إلينا هذا هو المطر!!

ـ بي من الرجولة أبعد مما تتخيلين، لكني لا رغبة لي في أن أؤذي طهرك وقداسك؛

فخطيئتك لن تكون مباركة، كما كانت خطيئة مريم، ولكن أيضًا بي شهامة عربي لا يؤذي أبدًا؛

لأن ملائكة السماء تحيط بك من كل مكان.

- ماذا يطل علينا مع أول المطر أي وجه في السماء؟!

- رسائل الله...

يفرد صوته المبحوح بأغنيات قديمة، فتذوب بالرغم من نشاز صوته يعيد عليها قصائد أصيلة،

فتنظر إليه نظرات كأنها تريد أن توقف مهاتراته. يظن هو أنها تجلت من رحم المعاناة.

تعانق النسمات المعبقة بالنهر والعرق. تدور أمام عينيه بإلحاح شهي وعذب.

يحملها بين يديه إلى البحر، كمن يحمل سمكة فضية. يداعب رأسها حين أجلسها بعد أن كان يحاول إيهامها أنها ستسقط في البحر لا محالة. توقفت إلى جانبه مبتلة، والسفن تترك دوائر وأمواجًا تتخلل جسديهما، فتمسك كتفه بشدة، ثم تتخلل تلك الدوائر. كأنما كان للمطر أغنيته المتكسرة على وجه البحر المالح... اقتربت منه نظرت إلى عينيه...

ـ لماذا تغلق نوافذ الضوء داخلك؟

ـ لأن أمامي نافذة بيضاء في منتهى الجمال والسحر.

لا تعرف لماذا قبلت كتفه؟ وهو الذي كان له شعر طويل أجعد، وسمرة بشرة تثير جاذبيته ووسامته، وأناقته. له رائحة عطر موحية في المدى. أطلق بصيرته. صار كمن يبحث عن اللا شيء، ولا يقصد أحدًا حوله، أو بالقرب من إحدى كتفيه. تنحسر ملامحه في دهشة مضمرة. لا أعرف أي يد عين شربت ماء البحر أسفلنا. أعادت لنا المظلات ذات اللونين، ثم التربة الحريرية التي تفردت بقدمينا حتى ذاك السرير الذي غفوت فيه، وهو بجانبي. يتأمل الساعات القليلة المتبقية لي هناك. بعد أن رأيت مجددًا ملامح هندية، وصحفًا تضج بأخبار المشاهير، حتى خطواتي العائدة نحو المطار، ويده التي تشابكت مع أصابعي لحظة أن انفلتت بحزن كبير، وأخذتني إلى السماء وحيدة.

لست أريد الصعود إلى جنة ليست في
خيالي
اكتفيت

ماذا نرى من الكون؟!

كيف لنا أن نمتلك مفاهيم جيدة تسمح لنا بقراءة الكون خارج حيزنا، وأن نباشر فهم ما ليس لنا إلا كوعي آخر لا يسيطر البتة علينا؟

إن ما نراه من المرآة في وجوهنا هو ما نريد بالضبط. أما بقية التفاصيل الأخرى فنحن نتجاهل التحديق إليها مع أننا أحيانًا نراها مشعة تنادي ولا نلقي لها بالًا.

في نهاية المطاف محاولة التغيير وقراءة سطور أخرى من كتاب لم نحبه قط هي أولى خطوات رؤيتنا للكون من زوايا أخرى.

ما السر المبطن تجاه رؤيتنا للأشياء المهملة وابتعادنا عن محاولة الصدام والاحتكاك بها؟

إذن أصل الأشياء هو رغباتنا الدفينة التي تتدفق من منشأ حقيقي يقودنا ناحية ما نريده فقط ويختصر مسافات من الإهمال وصرف النظر عما لا نريد.

الكون وتفاصيله، عقل الإنسان ووعيه لم يعد مجرد

أسئلة تبحث عن الإجابة عنها، بل تنطلق إلى حيز آخر وهو توضيح الأشياء ثم المقدرة الخفية على الوصول إلى ما يجعلنا نتحقق من منطقيتها.

كيف كان الكون قبل أن يكون؟!

متى أعلنت لحظة الصفر؟!

كيف كانت علامات تلك اللحظة؟!

أحاول مرارًا أن أشعل بيدي الكبريت؛ لأنطلق نحو الشمعة الهزيلة التي كرهت وجودها حولي فوق تلك الطاولة الخشبية منذ لحظة وصولي إلى هذا السكن المؤقت الذي أحاول أن أمضي فيه وقتًا قصيرًا في مدينة إسطنبول في تركيا لأنتقل إلى سكن آخر في ألمانيا وأستقر مدة في برلين التي أتيت إليها لتأدية مهمة رسمية طلبت مني في أثناء عملي الإعلامي لتغطية حدث ضخم. اخترت الهروب الأول في إسطنبول حتى تختارني الأقدار عنوة في برلين.. هذه الشمعة أردت لها وداعًا آخر. أردت أن أمنحها لحظة احتراق أخيرة وبعدها تعود إلى أصلها العدم الذي قدمت منه تمامًا كما الكون الذي بت أقرأ فيما وراء الوجود والكون والبداية..

يقتحم عزلتي من أبواب محرمة. يمسك بيدي صددته هو الآخر أتى من أجل المهمة نفسها ولا أعرف لماذا أراد أن يقلد رغباتي في البقاء أولًا في تركيا ثم اللحاق بالركب في برلين قلت له:

ـ الرجل يرى قلب المرأة مثل قلادة يتسلى بها لكنه لا يرتديها أبدًا حرامًا مثل وجودها في أذهان أخرى!!

ـ بمعنى؟

ـ أن محاولاتك للاقتراب مني أصبحت خدعة مكشوفة!!

ـ أفهم أصولك الحرة لكننا الآن في إسطنبول!!

ـ بمعنى؟

ـ أنكِ تستطيعين التحدث إليّ دون ترديد تلك العبارات التقليدية التي لا تشبهك أبدًا.

ـ كل ما أعنيه أني أكره تطفل الآخرين حتى لو كنت شابة عربية أمام شاب عربي يبحث عن فرصة للتسلية مثلك.

ـ هل تريدين أن أعود من حيث أتيت؟

ـ هذا الكلام سابق لأوانه أنت أتيت ماذا تريد الآن؟

ـ أنا معجب جدًا..

رفعت نظرها إليه وهي منهمكة بالتدوين وحاجبها صار يستدير مشيرًا إلى ملامحها المشمئزة.

ردد سريعًا:

ـ معجب بالعمل الذي تقومين به.. هل تحدثينني عنه؟

ـ لا أريد أن أبذل جهدًا في التعريف بما أكتب.

- هل تشكين في صدقي؟!

- لا أتأخر عن استنتاج كهذا؛ لأن كل ما تردده منذ أن أتيت من كلمات وأفكار وحتى النساء اللواتي تدور حولهن أمر في منتهى الهشاشة لا يثير رغبتي في التحديق إليه أو اكتشافه.

- يجب عليك التوقف عن هذا الكلام إذا وصل سوء الفهم إلى علاقاتي مع النساء سأترك لك المكان فارغًا وأرحل في الغد إلى برلين.

- إفعل ما تريد إنه شيء لا يعني لي بتاتًا؛ لأنه مكشوف مثل سر قديم نخبئه والجميع يعرفه.

خرج بعد أن فشلت كل أساليبه. هذا النوع من البشر التعامل معه أشبه بالقفز في المجهول. يثير الفوضى داخل أرواحنا ويبتعد. أمضى اليوم الآخر في إسطنبول في سكنه الذي كان قريبًا جدًا من سكني آراه من النافذة الزجاجية يتعمد الخروج وقت خروجي تمامًا ليتصيد ردات فعلي نحوه وأنا أفعل كما أفعل أمام المرآة أتجاهل الأشياء التي تنادي أن أنظر إليها بعمق.

أدركت تمامًا وأنا أسير في المطار أننا لا نرى من الكون إلا ما نريد فقط لا ننتظر أشياء أخرى تقتحم حياتنا ولا نستطيع أن نعثر على تفسير لتلك الدوافع الخفية في أحفورات الروح. حين أعود من قبل تلك اللحظة أجد أن

أشياء نشاهدها فقط؛ لأننا نريد ذلك وأخرى لا نفعل معها ذلك مع أنها أيضًا تريد الشيء ذاته. ستبقى الصفحة الأخيرة دائمًا موشومة بالنقصان وهو أمامي في الطائرة ومن سوء حظي سأقول إن وجوده بجانبي الآن على الكرسي الآخر ليس إلا تفسيرًا لرغبتي في الاكتفاء به كجزء لا أريد مشاهدته من الكون.

أيتها المعلقة على حافة القمر

لا تنامي فالحلم أصبح بك

لا تهجري حلمك بطير

يلتفت إلى غصن يابس

أريد أن أكتب قصة هذا الرجل

لماذا يسألني الناس عن حلمي هنا؟! لماذا أنا بالذات تلك المَدينه لهم بقراءة كاملة لأوجه حلمي العشرين؟!

كنت دائمًا أخبرهم أن لي أمنية واحدة توشك أن تختصر نفسها (بنجمة) في السماء.

من يسمع صوت الأمنيات داخلي «لا» فأنا لن أخبر أحدًا فيما لو كنت أتمنى حقيقة ما أتمناه.

أدرت ظهري للمرآة فيما ظل هو من بعيد لا يعير وجهي المنخفض للأرض اهتمامًا، ظل يركز في ظهري العاري تمامًا وشعري الأسود الذي يسيل كلعاب الليل حين يطفئ أعيننا بظلمة حالكة.

ها هناك.. فقط ظل يتأمل تفاصيل شابة بإمعان شديد وعيناه تتأرجحان كقارب فارغ في البحر تحركه الرياح وحدها. ما يخترقني من إحساس بوجود شخص حولي جعلني أرفع رأسي عاليًا كإيقان تام بأن هنالك أحدًا ما بقربي.

هذا اليقين بوجود الأشياء من حولي يرسل علامات حسية تخترق إحساسنا؛ فتدفع بنا أن نبصر أو نطلق أيادينا فيما لو كنا مكفوفين وأظن أن هذا الشيء يشبه تمامًا تنبه الطيور للكوارث الطبيعية.

حين نبصر ضوء الروحانية ذاك الذي يشع بنا لحظة يقظة؛ ندرك تمامًا حينها ما حولنا من أشياء مثل تلك العادات التي نكتسبها حين الرغبة كما لو جعلنا يومًا من كل أسبوع لتذوق نكهة ما.. هذا سيجعلنا فيما بعد من اعتياده أننا لا نملك طعمًا أو نكهة لذلك اليوم وكما فعلت أنا أن جعلت الأشياء الحلوة في المذاق هي المسموح لي بتناولها في يوم أكرهه ؛كأنني أحاول أن أدرب روحي أن تحب في ذلك اليوم ولو تلك الأشياء التي بالغت في حلاوتها.

في النصف الأول من الليلة التالية بدأت أجد أن يقين الشعور يبدو حقيقيًا. أبصرت شيئًا ما يتأملني كيف بإيماني يكفرون؟؛ لكنني لم أجد له أثرًا. بحثت كثيرًا ولم أجد شيئًا كنت طافحة بظنوني حتى أن شيئًا قادني إلى الأساطير لوجود أحد ما حولي يومئ لي يهمس بأذني وإن كان بصوت روحي داخلي وكأنما كانت قداسات دينية تغمرنا بالإيمان التام بوجودها.

أين هو أثر ذاك الشيء الذي كان يتأملني ليلة البارحة أصبح هو سؤالي دائمًا؟!

ذعرت جدًا من نفسي من أفكاري وظنوني من إيماني ملء روحي. كدت أطلق صراخي على مسامع الدنيا الساكنة لكن أحدًا لن يسمعني فلا نحيب يجدي ولا صراخ. كل شيء تلفه سكينة الله في أرضه وعباده في غرفتي المستطيلة.

لماذا يسكنني الشعور بوجوده حولي. ما عدت أرتدي ملابسي في غرفتي، بل ظللت كمن يغرق في صندوق من ظلمات كي لا يراني، ولكن شعورًا ما يراودني فأسرع إلى قطع ملابسي وأغطي بها جسدي العاري.

حتى ذاك الحين الذي تصبب المطر فيه على جسدي وصعدت السلم الرخامي خائفة مرعوبة وهو يمشي خلفي بهدوء وأنا كمن تتطاير من حلم أقسم على ذاك الشعور بأنه يتابعني حتى أعياني التعب فطفت حول روحي وخرجت إلى الشرفة لم أتمالك نفسي حتى سقطت من علياء وعيي كيف يكون هو شكل الخوف حين تتصافق مع رياحه أبواب حواسنا فنصبح شتات للحظات حتى الطيور التي حامت حول رأسي وفرت للسماء حين لامست يديه ملامح وجهي الساكنة يدرك تمامًا كيف تعبت من متابعته لي ومن مراقبته لكل صغيرة وكبيرة في حياتي حتى هذه اللحظة التي عدت فيها إلى الشرفة بعد يقظتي منذ أيام وبدأت أتابع الطيور وأرغب في فهم معنى أن تغرق في متابعة شيء يحلق حولك وتفهم تمامًا لماذا ينحرف في كل اتجاه تدرك مالا يستطيع قوله كمن تود سؤال الطيور لما حامت فوق رأسي فلم أستعجل تفسير خوفي بعد.

عاودت النظر إلى الطيور وبدأ مصباح النهار آفلًا إلا من صوت الطيور وبدأت أقرأ سطور محيطي كمن هجمت عليها الطيور كنت فزعة تريد أن تأكل من رأسي فركنت إلى زجاج غرفتي وقلبي داخلي يرتجف ثم خر ساجدًا معي ظل ثقب في ذاكرتي لم تستدل عليه أشعة الشمس كم حدثت نفسي عن هذا الذي يحدث بشكل لم أنتظر أن يكون نتاجًا لما أفكر فيه ما أدركه أنني لم أعد أقترب من شرفتي أو من الحديقة ولا من تلك الطيور التي ظللت أتابعها لم يصبح بمقدوري أن أكون خارجة عن حالة السؤال تلك فامتلأت به حتى وصلت إلى حقيقة أن رجلًا موجودًا كي يخاطب أحلامي ورغباتي ويرى مثلي وداخلي كل شيء يعرف أسرار فتفوق على كونه مكتشفًا محيطًا بسائر أجزاء حياتي وإلا كيف لطيور أن تغزو رأسي حين أفكر في ما كنته وتبدأ بالانتشار حتى تخطت حاجز الزجاج وصارت مدينة من طيور تتابعني في صحوي ونومي أراها إن كنت مفتوحة العينين أو أغلقتهما للحلم كيف أقول: قد تعبت من كل شيء؟!..

الغرفة تستجيب للظلام والهدوء وأنا لم أعد أستطيع حتى أن أستمع إلى موسيقى

Brian Crain (wind)

أو (Leaves on the Water) تلك الموسيقى التي صارت تشبه ملامحي في سكونها ورغبات الحياة داخلي في إيقاع منخفض. مددت ذراعي كي أتحسس ما حولي وكأنما

أطوف حول دهشتي وأسقط من طيور تنقض على رأسي فلا ينادي صراخي أحدًا حتى أصبحت أكره المرايا. عصبت عيني بيدي وتركت جسدي عاريًا كشيء لا يمكن إخفاؤه. الساعة التي تستدير فوق رأسي تقترب من الصباح. هربت إلى النافذة أغلقت الستائر البيضاء الطويلة والتحفت بأسفلها ثم بكيت كثيرًا حتى نمت عارية ككائن يطرق أبواب الجنة توًا. أحسست بالخوف يغرقني من رأسي إلى أخمص قدمي. الطيور التي قرأت عنها أنها عائدة من أساطير الآلهة تخترق حتى عصابة عيني البيضاء؛ حطمت حينها كل المرايا. تخفق أجنحة الطيور في كل السماء حتى صارت سوداء من جديد وظننت أن السماء لم تكن يومًا إلا زرقاء والظلمة التي تكتسيها لساعات هي من طيور تغدو فاردة أجنحتها وتخفي النور. تظل بعض الثقوب بينهما فتصير من لمعتها نجومًا في حين أن الطيور وحدها ترى ما يحدث فوق في السماء ربما يحدث حدث كوني في منتهى الجمال هناك. نحن البشر قد لا نراه سوى في الجنة أو حين مغفرة..

هل تشعر كل أنثى أن أحدًا ما يتابعها في هذا الكون أم هو شعوري فقط. هناك أصبحت الرغبة في بكاء طويل، لم تدع لي مجالًا للشك أنه قد يعود قريبًا. أحسست أن غرفتي تغير لونها تمامًا وبدأ شيء من روائح ندية يتطاير لأنفي. رفعت رأسي وإذ به يقف قبالة الباب الخشبي ساكنًا. بعد تلك اللحظات من الخوف تغيرت كل أجواء الغرفة لم يبق شيء على حاله وكأن شيئًا من الأثير يتبخر لزجاج عيني الشفاف. الطيور حين هرعت إلى نافذتي لم تعد بيضاء كما

أحببتها يومًا صار السواد لونها. صار الكون يعج بالطيور حتى أوشكت أن أقول إن الجنة أصبحت خاوية على عروشها. لماذا نحس دائمًا أن الموت هو السبيل الوحيد لدخول الجنة؟ وأن نهاية العالم هي الموت مع الكوارث الطبيعية وأن إنسانًا ما لن يملك الدخول هناك حيًّا قط والملائكة والبشر. ما شأن الكائنات النارية أم هو المآل واحد. حين كنت أفكر بهدوء غريب ونسيت تمامًا حاجز الطيور السماوي والرجل الذي يقف قريبًا مني عند الباب أن هذه اللحظات صارت تضيء لي شيئًا، كان يقترب مني فيها خطوة خطوة وأنا غارقة في التفكير أنظر إلى السماء.

كأن شيئًا في الخارج يلوح لي. لم أستجب له ولا لذلك الذي يقترب مني أكثر. مازال هناك شيء ما يضيء لا أعرف من أي مكان وأنا منتصبة عند الشرفة بالرغم من الخوف والأبواب المفتوحة والطيور التي هناك ؛ فأنا لم أعد أسمع صوتًا قط ولا أشاهد شيئًا. رأيت في الأرض ملايين من الريش الأبيض المتناثر وحده مازال يقترب مني.

أحاول أن أرفع قدمي التي أصبحت ثقيلة بحجم الخوف الذي أحمله داخلي. كل شيء حولي تساقط ما عدا مكتبة بيضاء ملأى بالكتب وتماثيل بيضاء وريش أبيض صار ينتشر في غرفتي على الأرض كلما أمعنت الرؤية، ثم يتحول لونه إلى الأسود بالرغم من خوفي لم أتراجع ولم أتقدم. فتحت الباب الزجاجي وخرجت إلى الشرفة أمسكت الحديد بقوة أكبر. وجدت نفسي أمام السماء وأمامه أمام الخوف من الوقوع والخوف من أن يمسك بي حتى تساقط

حرير الستائر الأبيض على الأرض وصار كل ما بيني وبينه في منتهى الوضوح.

كنت مترددة في القفز. كانت أسطح المنازل وأسلاك الكهرباء مكشوفة،حتى صار النهار ليلًا والنجوم بدت واضحة ؛لكن ما كان يلوح لي في الخارج قد توقف مثل المطر والانتظار؛ حتى أجنحة الطيور صارت لعبة لأيادي الريح والقمر له رأس وجسد متداخل ومستدير يثير في داخلي مصباح الكون فيصبح وجهي الخائف مشعًا. تسرب من جسدي كل شيء حتى صار جسدًا عاريًا تمامًا وأكثر ما قد خشيته هو أن أموت وشعري يتبعثر في الهواء. لم أعد أرى الحديقة ؛فالليل حجب عني الرؤية. لف على عيني عصابة سوداء تجعلني أرى فقط الأشياء المضيئة ماعداه، فذلك ضرب من المستحيل وأنا أمضي في قراري أن أقفز؛ أتأمل صورة الموت ومن أي أبواب الروح أقفز إليه؟!هو بدا قريبًا مثل شكي وخوفي أبدو لساعات محلقة في كل ما حولي. تلبستني حالة من الرغبة في أن أحلق كما تلك الطيور وأسافر في اللاهناك وفعلت!!

إذًا... قبلني وكفى

لو لم يقف في وجهها!

«كَانَّ فِي كِلَيْنا قلبًا
ينتظرُ قلبًا منْ زمنٍ بعيدْ».
مصطفى صادق الرافعي

لا تكف عن تقليد صوته، وهو يكرر كلماته متوعدًا وغاضبًا، وتهز رأسها ساخرة. لم تعد المسألة طارئة ككل مرة، بل باتت مسألة مصيرية تقودها فتاة تقف بين صوتها وعقلها ويتأرجح بينهما قلبها الصغير والشمس مائلة بنصف وجهها تطل من الكون وهي مستلقية أشبه بلحظة خدر تسكن فيها والنوافذ تزيح ستائرها وكأنها تلوح للرياح أن تجلب مزيدًا من نسمات هواء بارد والنقاش بينهما يحتد. صار عنيفًا حين أمسك بذراعيها تتطاير من عينيه الشرر وتصرخ بوجهه:

ـ هل كان حبك حبًا مجازيًا؟!

ـ ليس مجازيًا. وذلك أمر مختلف.

ـ ليكن!

ـ لماذا تأخذين كلامي لك في لقائنا الأول بالمعنى الحرفي؟ لماذا تقفين دائمًا على رؤوس الكلمات؟

ـ ربما لأني أصبحت معك أعيش الحب في مرحلة متأخرة جدًا تصور مع أننا لم نرتبط بعد ولكن كل شيء بيننا أصبح مكشوفًا.

ـ لماذا تضعين العثرات بيننا؟

ـ لأن كل شيء تغير وأول التغيير بدأ من عندك لا تتخيل كم هو الشعور داخلي لا يحتمل ويصعب تفسير ما ينجر عنه أشعر أني في ورطة!

ـ اها!.. وماذا بشأن الورطة؟

ـ شأنها شأن تلك الكلمات التي كنت تقدم بها نفسك وأفكارك المتنورة شأنها شأن الخديعة وربما سقف أحلامك المرتفع حين أخبرتني بانفتاحك بشكل أمنية وفسرتها أنا بغباوة أنها حياتك وفكرك!!

هناك أفلتت من قبضة يديه وأدارت ظهرها له ثم اقترب منها. حاول أن يمسكها لكنها التفتت إليه وألقت عليه نظرة مشحونة بالسخرية والانتقاص مغلفة بكذبة .

ابتعد عنها. حاول أن يستدير حول غضبه واندفاعه ثم استقر عند النافذة والشمس تبصر بعين واحدة ثم ترمي بإشعاعها ليصل إلى مكانه وتتساقط حبات العرق من عنقه

وتخترق شعيرات صدره السوداء. قبض على شفتيه ثم باح لها بصوت خافت لا تكاد تسمعه الشمس وهي تقترب أكثر من نافذتهما الوحيدة.

ـ أن يشعر العاشق بالانفصال عن الحب يعني أن يفقد جسدًا موحدًا توزعت روحه عند كلينا. أبدو في تصورك هذه اللحظة رجلًا كلاسيكيًا جدًا وأنت تتوزعين بين إيمانك المطلق بالأشياء والأشخاص والأماكن والمقدسات والرومانتيكية الأنثوية التي كانت سرك أنت وحدك.

كان الورد حولها ذابلًا مائلًا يقترب من الأرض فتبعده بيديها وتتهشم أطرافه اليابسة ثم ترفع بيديها بعض ما تناثر على يديها من الورد.

ـ أنا كالورد ذاته رومانتيكية جدًا معنى ورمزًا ولكني سأدرك حتمًا نهاية خيباتي؛ لأن كل ما أريده لن يتحقق. أدرك ذلك.

ـ كوني إنسانة. كوني على طبيعتك.

ـ الطبيعة ليست إنسانية! إنما غارقة بالكائنات الإنسانية وتتعامل خارج ذلك في معظم الأحيان!

ـ أنتِ جامحة في صهيل الكلمة، أحاول جاهدًا أن أترجم لك كل الكلام لفهم بسيط لكنك أبدًا تترفعين.. توقفين داخلي كل السكون وتحولينه إلى ضجيج، كيف تفعلين ذلك بمجرد كلمات؟!

ـ هذا هو اعتقادك؛ لكني أبدًا لا أفعل. أنا أتخلص

من قدرتك البسيطة على الحوار معي.. أقصد شجارك الملغم بكلمات ساكنة أن أنزع عنها صفة الملائكية في ترويض الكلمات. أنت أكثر جنونًا مني حين تغضب.. انظر كيف قبل لحظات كنت تريد أن تقتلعني من جذور عشقك وتلقي بي أنثى مجردة. لا لشيء إلا لأني واجهتك بأني لا أخاف ولا أخشى ولا أستسلم للوعيد. حاول معي أكثر أنت تملك القدرة على ذلك وسأحاول مليًا أن أحطم قدرتك، لن تقاومني أنا أكثر شراسة منك!تذكر ذلك حين تبدأ بمحاولاتك الواهنة تذكر!!

- إذن أعود إلى سؤالك المركزي الحب المجازي!!

- قل حبك لا تخدع الكلمات.

- حبي المجازي لكي أدافع عن مكان داخلي. احتجت إلى كل هذه الصدف؛ لتؤسس فكرة الصدفة داخلي؛ لأنك تعرف كم أعشق الخيال وترعبني الأشياء الجاهزة تلك النماذج ليست تشكل اهتمامي ولا حياتي! أستطيع أن أقول إنك نجحت في خديعتي لكنك فشلت في استمرارها اكتشفتها ولو بعد حين.. اكتشفت أني صدقت أكثر من إيماني فدع الإيمان بلا تبرير سيبدو أجملَ أقَل انكسارًا في داخلي.

الباب سكن خلفها أبدًا والشمس توزعت في كل مكان. غادرت سريرها ونفخت في السحب البيضاء؛ لتنشرها حول السماء. أغلقت عينها فنغلق بعدها النور والنوم صار طيرًا لم يعد إلى عشه. ظل يفكر في كل الأشياء

ليس بالإمكان أن تكتمل الخديعة أو يكتمل الحب لماذا وقفت القصة قبل النهاية لماذا تحولت إلى شيء لا يكتمل أبدًا.

فتح عينيه للنوم وخرج منه حلمها إلى الأبد.

وَبِيَدِي أَضْرِب النَّافِذَة
فِيَتكسّر زُجَاج قَلْبِي

هُدْهُد لَفَظَ فَمَه فِي مَخْدَعِي

مَا أَكْثَر مَا

يَرْقُد الْحَرِير عَلَى جَسَدِي

وَتَظْهر كَتِفَاي عَارِيَتين

لِلْهَوَاء وَاللَّيْل

مَا يُطْلِق بِي فَزِعًا

هُدْهُد لَفَظَ فَمَه فِي مَخْدَعِي

وَاخْتَفَى

كَأَن يَدًا مِن حُلُمٍ

تَجرني إِلَى النَّافِذَة

ثُم تُسْكِب كُحْل اللَّيْل مِن عِينِي

يَنْدَلِق وَجْهِي عَلَى مِرْآة السَّمَاء

وَيصبّ نَهْرَيْن مِنْه
أَحَدُهُمَا أَرَاهُ وَلَا أُرَاهُ
فَيُطْفِئ بِه نَجْمَتَيْن عَلَى صَدْرِي
تُمَرِّر أَصَابع الْدُّخَان
عَلَى فِقْرَات رُوْحِي
تَقْبِض عَلَى مَفَاتِن صَرْخَتِي
تُقَطّع صَوْتِي
وَبِيَدِي أَضْرِب الْنَّافِذَة
فِيَتكسّر زُجَاج قَلْبِي
وَتَفْزَع صَيْحَتِي
غِزْلَان فِي عُيُوْنِي
ثُم تَخَلَّقت غَابَتَان فِي كَفِّي
أَسِيْر يَمِيْنًا
تَلَطَّخت قَدَمَاي بِزَعْفَرَان
وَأَسِيْر يَسَارًا
لِأَجِدَها
نَارًا مِن حَرِيْر
كَيْف سَأَسْتَطِيب
الْعَيْش عَلَى جَمْرَة

وَتَأْخُذُنِي أَجْنِحَة الرِّيح

إِلَى عَرْشِي

تُحِيْط بِه أَمَارَات أَلِفْتُهَا

وَمَامِن عَرْش

أَنَا الْمَلِكَة الْكَافِرَة

قَبْل أَن يَرْتَد بِه الْبَصَر

أَنَّى لَه

أَنْ يَأْتِي بِه مَنْ عِنْدَه عِلْم الْكِتَاب

بَيْن جُنُوْدٍ وَقَوْمٍ

عِبَدة الْشَّمْس هُم

استَنْطَقْنِي

فَنَطَقَت بِه

كَأَنَّه هُو.

كَان مِعْطَفِي قَصِيْرًا جَدًا

وَمَلابِسي ضَيِّقَة

اتَّخَذَت هَيْئَة جَسَدِي

الْحِذَاء الَّذِي يَلُفُّ سَاقِيَ حَتَّى أَعْلَى رُكْبَتِيَّ

يُوْشِك أَن يَتَرَاخَى فَرْوُه مِن الْبَرْد

قُبَّعَة رَأْسِي مِن الْرِّيش كَحَمَامات تَجَمَّعَت
لِتَأْكُل أَفْكَارِي

وَأَنَا أَبْحَث عَن مَوْطِئٍ دَافِئ

فَكَان مَنْزِل الفنان

مَاذَا يَصْنَع رَجُل فِي مِعْطَفِي؟!

نَهَضَت فَجْأَة وَالْعَاصِفَة تُوْشِك أَن تَهُب

مِن صَخْرَة مُقَدَّسَة

وُضِعَت دُوْن قَصْدِيّة إِلَهِيَّة

عَلَى شَوَاطِئ بَحْر

دَخَلَتْه فِي الْصَّيْف

وَهَا أَنَا أُغَادِرُه فِي شِتَاء

وُلِدْت أَنَا مِن رَغْوَة اسْتِحْمَام الْبَحْر

دِلفِينَة

أَمَشِّط شِعْرِي الْأَسْوَد

وَأُبَلِّل وَجْه الْبَحْر بِقَطَرَات مِنْه

كَأَنِّي تِمْثَال رُوْمَانِي

حَتَّى ارْتَدَيْت مَلَابِسِي

كَان مِعْطَفِي قَصِيْرًا جَدًّا

وَمَلابِسي ضَيِّقَة

اتَّخَذْت هَيْئَة جَسَدِي

الْحِذَاء الَّذِي يَلُفُّ سَاقِيَّ حَتَّى أَعْلَى رُكْبَتِيَّ

يُوْشِك أَن يَتَرَاخَى فَرْوُه مِن الْبَرْد

قُبَّعَة رَأْسِي مِن الْرِّيش كَحَمَامات تَجَمَّعَت لِتَأْكُل أَفْكَارِي

وَأَنَا أَبْحَث عَن مَوْطِىءٍ دَافِئٍ

فَكَان مَنْزِل الفنان

رَسَمْت وَجْهَه مَن بَابِه الْمُعَتّق

ثُم خَرَج مَن لَوْحَتِي وَفَتَح الْبَاب

ظَهَر شَابًا

كَأَنَّه خَرَج مِن جَنَّتِه تَوًّا

أَمْسَك بِيَدِيَّ

وَكَانَتَا عُصْفُوْرَتَيْن أَهْلَكَهُمَا الْمَرَض فَتَجَمَّدَتا

زَرَعَنِي كَلَوْحَة عِنْد مِدْفأَةٍ رُخَامِيَّة

هُنَاك بَدَأَت أَرْتَجِف رُبَّمَا تَذَكَّرْت الْبَرْد مِن جَدِيْد

أَو أَنَّنِي كُنْت سَأَبْرُد

أَو أَنَّنِي أَصْبَحْت أَكْثَر دِفْئًا

لَا أَعْرِف كُنْت مُشَتَّتَة

حَتَّى اسْتَسْلَمَت كُل أَطْرَافِي وَارْتَخَت

قَبْل أَن تَكُوْن مُقَيَّدَة بِخُيُوْط لَاشُعُورية بِقَلْبِي

أَسنِدْت ظَهْرِي عَلَى الصُوْفا

وَبَدَأَت أَكْثَر اسْتِمَاعًا إلى مَقْطُوعَة مَوَسِيقِيَّة دَافِئَة

كُنْت مُنْذ ثَلَاثِ سَنَوَات أَبْحَث عَن فَنَّان رَسَمَني قَبْل أَن يَرَانِي

فَقَد رَأَيْتُنِي فِي لَوْحَة

وَأَنَا عَلَى وَشْك الْيَقِيْن

أَنَّه لَم يَعْرِفْنِي

وَلَم يُصَادِفْنِي فِي مَكَان

كَأَي فَنَّان ظَل يَسْتَمِد صُوْرَتِي مِن سكَيتّشَات صَغِيْرَة

أَكَاد أَجْزِم أَنَّنِي فَتَاة كَرْتُون مُدبْلجَة

وَأَنَا أَلفُّ إِحَداهُمَا دَاخِل جَيْب مِعْطَفِي

وَهُو يُتَابِعُنِي وَقَد رَسَمَنِي فِي سِتين مَوْضِعًا

كَان فَوْق قُدْرَة الْحُلُم دَاخِلِي رُبَّمَا

فَنَّان شَفَّاف

لَم أُحِبَّ قَبْله وَلَكِنَّنِي آمَنْتُ بِالْحُب بَعْد أَن رَأَيْتُه

الْقَهْوَة سَاخِنَة

لِأَوَّل مَرَّة أُمْسِك بِكَفَّيْه لِأَخذ كَوْب الْقَهْوَة

وَأَشْعُر أَنَّنَا دافئان مَعًا

لَم أَبَحَث عَن دِفْء وَقْتَهَا

بَحثتُ عَن أَصَابع صَاغَتَنِي

مُؤَلِّهة الْحُب وَالْجَمَال

افْرُودَيت

وَلَكِن بِرَأْس وَكَامِل الأَطْرَاف

عِنْدَمَا أَخَذَتُ الْكَوْب

كَان يُمْسِك بِخَصْلاتِ شَعْرِي النَّاعِمَة

يَفْتَرِشُهَا بِالْهَوَاء

يَمُدُّهَا كَجَنَاح طَاوُوْس

وَأَنَا أَنْظُر بِبَلَاهَة شَدِيْدَة إِلَيه وإلى نَفَسْي

حَتَّى اعْتَكَفْت عَلَى الصُوْفا مُجَدَّدًا

وَاسْتَقَر عَلَى قِطْعَة فَنِّيَّة لَم تَكْتَمِل

أَنَا هُنَاك مُنْزَوِيَة بِجَانِبِي صُوَر كَثِيْرَة لِنِسَاء

عَارِيَات

أَصْبَحَت بِلَا شُعُور أُمْسِك بِأَطْرَافِهَا

حَتَّى لَا تُلوّثَنِي

ابْتَسم لِوَجْهِي

أَمْسك بِأَحَدِهَا

أَتَى صَوْتَه إِنَّهَا لِموديل

نِسَاء يَأْتِيَن فِي أَي وَقْت

لِأَرْسُم عَلَى أَجْسَادِهِن الْعَارية

بِمُقَابِل!

ثُم أُصَوِّر كُل لَحْظَة

أَحْيَانًا تُرَاوِدُنِي فِكْرَة أَن أُلَطِّخ جَسَدهَا بِأَكْمَلِه
وَلَا رَغْبَة لِي بِرَسْم شَيْء
مَلَامِحِي كَانَت تُرْسِل رَسَائِل إلَيه
لَم يُحَاوِل أَن يَفْهَمَهَا
وَكُنْت أَنَا عَلَى الْجَانِب الْآخَر
كَأَنَّنِي آلِهَة
وَهُو الْكَافِر الَّذِي لايُؤَدِي صلواته
وَلايَفهم رِسَالَات آلِهَتِه
لَا أَفْهَم هؤُلاء النِّسَاء
لَكِنَّنِي أشمأززت مِن الْفِكْرَة
الْصُوَر
وَمِنْه
أَرَاقَت يَدَي كَوْب الْقَهْوَة
عَلَى فُسْتَانِي
بَات رَطْبًا
كَأن الْكَوْن كُلّه يُمْطِر عَلَى جَسَدِي

فِي حُضُوْر تَوتُّرَي

تَرَكْت كُوْب الْقَهْوَة عَلَى الطَّاوِلَة

بَارِدًا

وَوَجْه الفنّان

وَالْبَاب الْمُغْلَق خَلْفِي

وَكَان وَجْهِي بَعْد أَن اكْتَشفْت بِه مَدِيْنَة مَن سُخْفِ فَنَّان

وَبَقَايَاه تَتَحَسَّس جُيُوْب مِعْطَفِي

أَلْقَمْتُهَا لِلْهَوَاء خَلْفِي

بَعْد أَن جزَّأْتها إِربًا إربًا.

الْقِطَار سَبِيْلِي الْوَحِيْد إِلَى مَحَطَّة انْتِظَار أُخْرَى!

رهاني الأخير

في النهار الأول من نوفمبر الحالي... كنت عائدة بمترو دبي ذي اللونين الأزرق والرمادي؛ متأملة ساكنة... أشبه صمت المكان. خلف الزجاج...أمسك بضفيرتي التي أقسمت لو كانت حلمًا لرجل لقصصتها عن بكرة أبيها، وقبعتي الرمادية المائلة. أرتدي قميصي الأبيض، وبلوفر أحمر، وتنورة جينز قصيرة. أضع حقيبتي جانبًا على المقعد الأزرق الغامق، ومعطفي الأسود. شخصان أمامي... يبدوان ببذلتيهما السوداوين الرسميتين، وبقلق مرتبك، يلفهما صمت طويل. حالما أعلن وصولنا فتحت البوابات. وما أن حملت معطفي على ذراعي اليسرى، وحقيبتي حتى رأيته مقبلًا أمامي. ذو سحنة سمراء، فهد الشاب الطويل والوسيم الإماراتي ذو العينين العسليتين. أو أنهما أقرب إلى اللون الذهبي كعيني القطط. فهد الذي رآني في غرفة تبديل الملابس؛ حين رآني قال بصوت مرتفع: يا ساتر.

حينها صفعت الباب بقوة كبرى، وكدت أبكي. ظننت أن شيئًا ما بشعًا رآه في تفاصيلي، أو أن شيئًا من جسمي ظهر عاريًا دون أن أشعر. بدأت أتأمل نفسي، وأتحسس كل

شيء، وأستدير حولي لعلي أجد ما رآه. حتى لعنته في سري على وقاحته، وجرأته، و كلمته تلك الغامضة التي اعتصرتها في رأسي. لعلي أجد لها مئة مبرر. أمضيت بعض الوقت، وذهبت إلى السينما بصحبة صديقاتي المشاكسات، وبالرغم من أني أخاف من كل شيء لطبيعتي الحساسة جدًا. إلا أننا لا ننفك عن شراء تذاكر لأفلام مرعبة. حتى لو ارتجفنا، أو هربنا، أو تركت خدوشًا في أمننا الداخلي واستقراره.

وأنا أحمل مشترياتي معبأة داخل أكياس كثيرة،حتى صعدت ونسيت ذاك الفهد الذي عاد من جديد، وهو ينزل من السلم الكهربائي، ولم أكن أتذكر ملامحه؛ لدرجة أني توقعت أن يكون شخصًا آخر فيسألني عن الفيلم!!

أجبته:لجوليا روبرتس، وكان الفيلم آنذاك Larry Crowne.

ألقى علبة صغيرة في أكياسي. وقتها لم أشعر بها حتى عدت إلى الفندق. ما أن بدأ الفيلم، وجلسنا حتى ظل بجانبي كرسيان فارغان نحو الناحية اليسرى، وأنا أتابع جوليا روبرتس التي منذ أن رأيت أول أفلامها حتى وجدت شيئًا ما يجمعني بها روحًا أو طبيعة. أحمل بيدي هاتفي الصغير، وبيدي الأخرى علبة البوب كورن. رأيت رجلين يرتديان الزي الإماراتي الرسمي، وإذ بهما يجلسان بجانبي تلك الناحية. حاولت أن أنكمش على ذاتي كي أمكنهما من الدخول في ذلك الحيز الضيق وإذ هو فهد بذاته. الذي قال لي كلمته الملعونة، التي أفقدتني ثقتي بنفسي، ثم هو ذاك الذي سألني عن الفيلم، ولم أكن في حالة تركيز جيدة

لأحفظ ملامحه، وأدرك بأنه هو لكن قربه مني، وأنا أتابع الفيلم جعلني أعرف أنه هو!!

يقرب كتفه ناحيتي، فأحاول أن أترك مجالًا أوسع، ولم أفهم وقتها أنه يريد أن يحتك بي. يقول لي:

ـ لماذا تكره الفتيات الإماراتيين؟

أنظر حولي، وأرتبك، فأمسك بهاتفي بعد أن وضعت البوب كورن على الجهة اليمنى من الأرض، وكتبت له في هاتفي، ثم مددته بشكل منخفض أسفل الكرسي المخملي ليقرأه:

ـ لأنهم يتابعونهن في كل مكان ولا يتعبون!!

ضحك مني. أخذ هاتفه ليكتب لي:

ـ هل تعرفين أن لديك أجمل عينين في الكون!!

أفسد علي متابعتي. فلم أعرف ماذا فعلت جوليا بذلك المسكين «توم هانكس»؟ حتى أمسك يدي بقوة. لم أكن أتصور أن الرجل الإماراتي حين يعجب بفتاة يصبح عنيفًا إلى هذا الحد؟!!

آلمتني قوة يديه، فسحبت يدي، وكانت إضاءة هاتفينا تثير نظرات الآخرين وحنقهم.

شدني من ذراعي، فخرجت معه خارج السينما. لقد كنا أول الخارجين. نظر إليَّ نظرات عاشق متأجج العواطف...

ـ لن أتركك. ما لم أعرف رقم هاتفك، أو أي شيء عنك.

ـ لا لن أسمح لك، لقد أفسدت علي متابعة فيلمي في آخر دقائقه. أيضًا أمسكت يدي بجرأة وقحة لدرجة أنك أحرجتني أمام الآخرين. غير أن خروجي معك جعل الجميع يشعر أني...

ـ إن لم أحصل على عنوانك ـ ولو بموقع إلكتروني أريد أن أتواصل معك ـ وإلا سأتبعك، ولن أتوقف أنتِ رهاني الأخير..

قدمت له عنواني الإلكتروني، وتركته لأعود إلى الفيلم الذي بدت شاشته سوداء، ومنذ ذاك اليوم لم أره. حتى هذه اللحظة التي أتى فيها إليّ ليستقبلني بعد مرور أكثر من عام على ذاك اللقاء الأول بيننا. خرجنا من محطة المترو، ففتح لي سيارته. كانت توحي بالفخامة. يرتدي هو تي شيرت أسود، وجينز. طلبت منه أن يوصلني إلى قاعة فخمة في فندق أنيق. أضواؤها ساحرة، وخافتة. بعد أن سرنا طويلًا، ورأيت إعلانًا كبيرًا لها عن عرض لرقصة «فوكس تروت»، تسمى برقصة الخطوتين، وهي رقصة بطيئة... يتميز أداؤها بوضعيات متقاربة بين الرجل والمرأة. بعد أن دخلت من باب القاعة الذي يواجهني. طلبت منه أن نلتقي بعد الغداء في المطعم. ودعني وذهبت وحدي إلى الداخل. كان البساط الأحمر يقودني فجلست على أحد الكراسي لأتابع رجلًا وامرأة يرقصان بتقارب كبير. يرتديان ملابس بيضاء. أشقران وهي بالشعر المشدود ذاته كذيل فرس حرة. تغرق في تفاصيل ألقه. كأنهما خيول برية ترفض الانقياد إلا إليهما. وضعت ذراعي على الكرسي الذي أمامي، وبدأت أتابعهما في ذهول، وانسياب. خرجت بعد أن أمضيت وقتًا في متابعتهما،

وذهبت إلى المطعم. جلست إلى الطاولة، فرأيته أمامي يبتسم في ذهول عاشق. كنت أختار طعامًا غريبًا، فيسخر مني بضحكاته. لأني أريد أن تلتصق هذه المأكولات في ذهني، وأشعر يومًا بها، فأتذكره، لكنه ذهب من هاتف سريع. انتظرته كثيرًا، ولم يأتِ. كان المطعم خاليًا إلا مني، وعازفٍ أمضى وقتًا طويلًا، وهو يعزف لي، ولانتظاري. لكنه لم يأت. ذهبت أتمشى في الشارع. أنظر إلى البحر إلى المباني على الجانب الآخر، وإلى السيارات العابرة حتى توقفت مواجهةً البحرَ وخيبتي. وضع أحد ما يديه على عيني. لم أشأ أن أفتحهما حتى التفت حوله، وإذ به عازف البيانو. أخذني معه... سرنا نحو البحر، ثم رأيت نافورة على جدار حجري ذي تماثيل تشبه تلك النوافير في فينيسيا. أغرقت يدي ثم شربت من الماء كعصفورة حتى بللته أيضًا من بعض الماء المتبقي من يدي. ذاك النثار جعله يضحك، ثم انزوينا في ركن قصي لنأكل الآيس كريم. لا أعرف بعدها كيف وضعت رأسي على صدره أمام الشاطئ. ذهبت معه إلى الأستديو الأبيض ذي المظلات السوداء، فصورني في لقطات كثيرة، وأنا أرتدي بيجامة بيضاء واسعة، وقبعة بيضاء ذات شريط أسود، وعزف أمامي كأنما أحيا بداخلي أن أعود إلى تلك القاعة، وألتقط كثيرًا من الصور لرقصة «فوكس تروت». بدأ يعلمني التصوير، حتى وضعت له قبعتي البيضاء، وبدأت بتصويره. أنزلتها إلى أسفل تمامًا. كما كان يعلمني كيف أتقن الإمساك بالكاميرا. تأخرت كثيرًا عدت إلى المطعم ذاته الذي يعزف به، وإذ به لا يوجد أحد عدا ورقة بيضاء مغلفة يعلوها اسمي، وبجانبها قبعتي البيضاء ذات الشريط الأسود.

المحتويات

ماذا يصنع رجل في معطفي

كَان مِعْطَفِي قَصِيْرًا جِدًّا

وَملابِسي ضَيِّقَة

اتَّخَذَتْ هَيْئَة جَسَدِي

الحِذَاء الَّذِي يَلُفّ سَاقِيَّ حَتَّى أَعْلَى رُكْبَتِيَّ

يُوْشِك أَن يَتَرَاخَى فَرْوَه مِن الْبَرْد

قُبَّعَة رَأْسِي مِن الرِّيش كَحَمَامَات تَجَمَّعَت لِتَأْكُل أَفْكَارِي

وَأَنَا أَبْحَث عَن مَوْطِئٍ دَافِئ

فَكَان مَنْزِل الْفَنَّان

نوال الجبر

مجموعة قصص



ISBN 978-614-404-365-3
9 786144 043653

تصميم الغلاف: هشام يحيى